@ketab_n
13.9.2015

رواية | NOVEL

فيركور

صمت البحر

ترجمة

وحيد النقاش

أزمنة

رواية

فيركور

صمت البحر

ترجمة

وحيد النقاش

Twitter: @ketab_n

صمت البحر

Twitter: @ketab_n

فيركور: صمت البحر

ترجمة : وحيد النقاش

الطبعة الخامسة عن دار أزمنة : 2015

أزمنة®

أزمنة للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5522544

ص.ب: 950252 عمّان 11195

شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4

info@azminah.com

info@azminah.net

Website:http://www.azminah.com

تصميم الغلاف : أزمنة (إلياس فركوح)

الترتيب والإخراج الداخلي : أزمنة (نسرين العجو، إحسان الناطور)

تاريخ الصدور : كانون الثاني/يناير 2015

Twitter: @ketab_n

جان مارسيل برولر

أو : Jean Marcel Bruller

فيركور Vercors

(1991 -1902)

روائي وفنّان حفر غرافيكي فرنسي، اشتُهر بروايته «صمت البحر» (1942) حيث كتبها أثناء تخفيه ناشطاً في حركة المقاومة الفرنسية للاحتلال النازي، ونشرها باسم مستعار هو فيركور، كأولى إصدارات دار منتصف الليل، التي أنشأها كبؤرة ثقافية تحت الأرض مع بيير دي ليسور Pierre de Lescure لتكون إحدى وسائل تعزيز الروح الوطنية لدى الفرنسيين، مبقياً على سِريَّة الاسم حتّى عن زوجته.

نُشرت الرواية في الولايات المتحدة عام 1943، وباعت أكثر من مليون نسخة، وتُرجمت إلى 17 لغة. كما تمّ تحويلها إلى فيلم سينمائي عام 1948. ولقد بات معروفاً أنه باشر بكتابة صفحتين من العمل كل يوم أثناء امتثاله للشفاء إثر تعرضه للإصابة في بداية الحرب، و«للإبقاء على عقله فاعلاً» ـ بحسب ما صرّح في ما بعد. أما فيركور؛ فهو أحد الأسماء المستعارة التي استخدمها خلال انخراطه في المقاومة، وتيمناً باسم منطقة جبلية عند سفوح جبال الألب الفرنسية.

قبل كتابته لـ «صمت البحر» كان معروفاً كفنّان حَفْرٍ غرافيكي على نطاق ضيق، كما نشر باسمه الحقيقي سبعة أعمال هجائية من 1925 - 1939، من

Twitter: @ketab_n

بينها: «الرجل المنشطر»، و«الجحيم»، و «صور مطمئنة عن الحرب.»

بعد انتهاء الحرب، باع فيركور دار نشره (جدير بالذكر أنَّ شريكه في تأسيس الدار كان قد أُعتقل أثناء الاحتلال، وأُعدم!)، مواصلاً كتابته للمقالات والروايات. ومن الأعمال التي لاقت رواجاً: «ثلاث روايات قصيرة» 1947، و«أنتَ سوف تعرفهم» 1953، و«المتمردون» 1956، و«ممرات الحبّ» 1961، و«سيلفا» 1962، و«كواتا» 1966، و«طَوْف ميدوسا» 1971، وكانت رواية «سيلفا» أكثر تلك الأعمال إلفاتاً، علماً بأن جميع كتبه قامت زوجته روث باريس Ruth Barisse بترجمتها للإنكليزية.

من أعماله الأخرى أيضاً: «حيوانات ممسوخة»، و«حطام سفينة رقيق.» غير أنّ «صمت البحر» ظلّت الأكثر رواجاً ونجاحاً على مستوى القراءة والنقد.

لم يحصر فيركور أنشطته في حدود الكتابة الروائية؛ إذ لم يتردد في إعلاء صوته رافضاً للظلم أينما كان. ففي عام 1957، أعادَ ميدالية الشرف العسكرية للحكومة الفرنسية كموقفٍ رافض لما أسماه «المجازر في الجزائر»، بالنظر إلى ممارسات القوات الفرنسية هناك.

وفي يناير 1973، وبينما استعرت الحرب الفيتنامية، وبدا الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون عاجزاً عن تحرير الأميركيين من صراعٍ باتَ غير مقبول على مستوى العالم؛ كتب فيركور مقالاً في صحيفة «لا موند» أُعيد نشره في «نيويورك تايمز» تساءل فيه: «أين الفرق؟ أين الفرق بين قصف طائرات هتلر لفرنيكا وتدميرها، وقصف السيد نيكسون لهانوي؟ أين الفرق؟»

Twitter: @ketab_n

مقدمة الناشر

بينما أقلّب صفحات الكتاب، أثناء تدقيقي لـ «بروفة» قبل إرسال النصّ للطباعة؛ كانت الصفحات تتشقق بين يدي ليعود الورق إلى طبيعته الأولى: إلى خشب الشجرة التي تحوّلَت إلى كتاب! بدت، في رِقتها ولونها المُصفرّ، كأنها قشرة لِحاء الشجرة أو حتّى أوراقها الجافة المطقطقة! صفحات هَشّة ومتآكلة الحوافِ أحرقها الزمن، سرعان ما تقارب الانتثار بين الأصابع حين تقليبها!

إنها «صمت البحر» في طبعة دار الطليعة اللبنانية، مغفلة سنة النشر، لكن بإمكان المتصفح تقديرها إذا ما قرأ على غلافها الأخير: الثمن 100 ق.ل. أي ليرة لبنانية واحدة! أكانت في ستينيات القرن الماضي؟ على الأرجح.

لماذا طبعة جديدة لنصٍّ قصصي/روائيّ نُشر أوّل مرّة في لغته الأصلية قبل 73 سنة (1942)، ثم تُرجم للعربية ونشر سنة 1968 في مصر عن سلسلة «روايات الهلال» بترجمة وحيد النقاش هذه التي بين أيدينا الآن، كما نُشر أيضاً سنة 1979 في فلسطين عن «منشورات دار الكاتب»، وبعدها أصدرت «دار المدى» في دمشق طبعة بترجمة رشيد التركي سنة 2006 وزعت مجاناً كملحق لمجموعة صحف.

أربع طبعات عربية لهذا النصّ القصصي/الروائي، بترجمتين، فلماذا هذه الطبعة الخامسة اليوم؟

ببساطة: ليس لأنها واحدة من أهمّ وأشهر كتابات المقاومة في تاريخ الأدب الحديث وحسب؛ بل لأنها أرتنا كيف للمقاومة السلبيّة، غير المسلحة، أن تكون ذات فعالية هائلة متمثلة في الصمت. صمت بمقدوره أن يكون «مخترِقاً»

Twitter: @ketab_n

و«قاتلاً» في وقتٍ ما، ومكانٍ ما، وظرفٍ ما، وحيال شخصٍ ما.

طبعة أخرى لأننا بحاجة دائمة، ومتجددة، لتوفير هذا النصّ لجيلٍ جديد من القرّاء فاته الاطلاع عليه بسبب التقادم، وخلو المكتبات منه. ولأنَّ كتابة كهذه تمثّل ضرورةً روحيّة ما دامت الاحتلالات لم تنته، وبخاصة الاحتلال الصهيوني لفلسطين الذي باتَ (كما يُقال) آخر الاحتلالات! ولكن: أيكون الاحتلال للأرض فقط، أم هو احتلالٌ للروح أيضاً ـ الأمر الأشد خطورة، والذي تجلّى مباشِراً في أهداف المحتل النازي من خلال تصريحات عسكرييه ـ بحسب الرواية. فأن تخضع الأرض للاحتلال مسألة يمكن معالجتها بأكثر من وسيلة، أما أن تُحتَل الأرواح؛ فمعالجتها تقارب المستحيل. وهذا ما قاوماه بطلا «صمت البحر.»

لن أستفيض في التنقيب عمّا يتضمنه هذا النصّ القصصي/الروائي من منحىً حِكائيّ؛ فلقد تمت مراجعته في عدد كبير من القراءات المنشورة في غير صحيفة ومجلة. وها هو بين يدي القارئ. أما ما أراه جديراً بالتنويه؛ فهو التساؤل عن تجنيس النصّ، أهو قصة طويلة أم رواية قصيرة «نوفيلّا»؟

هو رواية قصيرة، بحسبي، استناداً إلى أنّ عدد الصفحات ليس معياراً أساسياً وأوّلاً في التجنيس الأدبي. وأنّ محدودية المكان والشخصيات ليست كذلك حصراً على القصة القصيرة ـ كما يفهمها البعض. إنّ الحالة المسرودة الماثلة للقراءة، الداعية للتأمل وإمعان التفكير، حالة روائية بامتياز؛ إذ تذهب بنا نحو مفردات ثقافية ومعرفية تستحق التريث عند جُمَلٍ بعينها، قبل تكملة القراءة. وبذلك؛ تنفتح أمامنا آفاق من التخييل الخصب لا تتسع لها سوى الرواية ـ والرواية بمعنىً ما، وليس أيّ رواية.

ختاماً: تأمل «دار أزمنة» أن تكون، في إعادة نشرها لهذا الكتاب، قد أمَدَّت القارئ العربي بنصٍّ يحمل في طياته أكثر من مبرر لأن يصبحَ كتاباً جديراً

Twitter: @ketab_n

بالاحتفاظ به. مع التنويه إلى أننا حافظنا على توطئة المترجم، والدراسة المستقاة من مجلة «الكاتب المصري» عدد مارس/آذار 1946 لفؤاد وصفي أبو الذهب المثبتة في الطبعة الأولى.

إلياس فركوح

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

توطئة

المقدمة المنشورة في بداية الترجمة تحت عنوان «الأدب الفرنسي في عهد الاحتلال»، هي نص المقالة التي قرأتها منذ ما يزيد على أربع سنوات لكاتب لا أعرفه، ولا زلت أدين لها حتى الآن بفضل تعريفي بهذه القصة الرائعة التي ظلت تعيش في وجداني منذ قرأت ملخصها الأول حتى عثرت عليها أخيراً فقرأتها في نصها الفرنسي أكثر من مرة، عاقداً العزم على نقلها إلى القراء العرب، وخاصة بعد أن نضجت في نفسي الأحداث الأسطورية لتجربة الحرب الجزائرية، وأكتشفت الوشائج التي تربط بينها وبين تجربة القصة.

واليوم، وبعد أن تحول الضحايا إلى جلادين، وأصبح الفرنسيون يقومون، تجاه الجزائريين، بنفس الدور البشع الذي كان الألمان يقومون به تجاههم أثناء الغزو النازي لفرنسا، مع فارق واحد هو أن صمت البحر في فرنسا قد أصبح هدير الأمواج في الجزائر، أراني سعيداً بأن يتقبل القراء العرب هذه الترجمة، فهي خير إدانة لفرنسا، لأنها شهادة يقدمها فنان فرنسي...

وأنا، إذ أستبيح لنفسي أن أجعل مقدمة الترجمة العربية تلك المقالة التي عرفتني بـ «صمت البحر» لأول مرة ـ وأظن أنها عرفت القراء العرب جميعاً بها لأول مرة أيضاً ـ فإنما أعتبر ذلك إعترافاً بفضل هذا الكاتب الممتاز الذي اختفى اسمه ولست أعرف أين هو اليوم...

وحيد النقاش

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الأدب الفرنسي في عَهْدِ الاحتلال[1]

عاشت فرنسا بأسرها أكثر من أربعة أعوام طوال ترسف في القيود تحت نير الاحتلال. فمنذ شهر يونيو سنة 1940 خيم صمت عميق على باريس مدينة اللهو الصاخب والعلم الزاخر والفكر الرفيع، وأصبحت بين عشية وضحاها مدينة الأتراح بعد أن كانت مدينة الأفراح. حط عليها صمت رهيب ثقيل وخفت صوتها، وانقطعت كل صلة بينها وبين العالم الخارجي، فلم يسمع عنها أولاً إلاّ ذلك الأنين الحزين، أنين شعرائها المنتحبين، فعرف أناس أن الحياة لم تفارقها بعد، وأن أنفاسها لا تزال تردد صيحة الحرية والأمل. ثم ارتفع ذلك الأنين الذين ظنه الغزاة حشرجة، ارتفع رويداً رويداً حتى ملأ أجواء الفضاء وعمَّ فرنسا كلها، فأضحى صرخة تدوي في السماء تصم الآذان وتهتف بزوال الذل وبشن حرب عوان على الخونة والغزاة الفاتحين.

أخذت فرنسا تفيق شيئاً فشيئاً من ذهول الصدمة الأولى وهول الكارثة التي حلَّت بها، فاجتمعت فئة من الكتاب الذين لم يذعنوا لسلطان القوة

1- نشرت هذه الدراسة كتقديم لرواية «صمت البحر» في مجلة «الكاتب المصري» التي كان يصدرها الدكتور طه حسين بالقاهرة في العدد السادس من المجلد الثاني الصادر في مارس (آذار) عام 1946، وهي أول كلمة كتبت في اللغة العربية عن هذه القصة.

Twitter: @ketab_n

الغاشمة ولا لأمر تكميم الأفواه، وأسسو في الخفاء داراً للطباعة والنشر لإصدار الكتب وتوزيعها، للحض على المقاومة ولبث الأمل في النفوس، ولحمل شعلة الفكر التي ذوى وهجها، فجذوتها لا تنطفئ أبداً. تألفت تلك الجمعية من كتاب وشعراء عديدين مختلفي المشارب مؤتلفي المآرب ينتسبون لكل الأحزاب السياسية، ولكنهم يبتغون جميعاً الوصول إلى المقاصد القومية، فكان منهم الشيوعي مثل الشاعر آراجون، وكان منهم الكاثوليكي مثل الروائي فرانسوا مورياك، طووا الجوانح على الحزازات القديمة وحدووا كلمتهم على الخلاص من ربقة الاستعباد. أقاموا داراً للنشر سموها «دار منتصف الليل «Les Editions de Minuit» وقد أراد بهذه التسمية أن تكون رمزاً لعملهم في الخفاء تحت ستار الليل، ليل الاحتلال الحالك، وقد وطدوا العزم على تبديد ظلماته حتى يظهر نور الحق ساطعاً متألقاً في سماء الحرية.

قامت هذه الدار بأعمال جليلة تطلبت شجاعة نادرة ورباطة جأش فائقة واستخفافاً بالأخطار الداهمة، إذ كانت تطبع الكتب في الخفاء وتنشرها بين الناس في الخفاء بل توزعها عليهم أحياناً في دورهم رغم مطاردة الجستابو لهم ورغم صرامة العقاب الذي يهددهم، إذ كان الإعدام جزاء من يقع منهم في قبضة العدو. وكم من دماء طاهرة أريقت! وكم من نفوس بريئة أزهقت في سبيل القيام بهذا العمل الجليل! وما فتئت هذه الدار تنشر روائع الأدب الخفي من شعر ونثر، بين قصة وبحث وقصيدة حتى جاء يوم التحرير، فظهرت بين الناس مجلة الهام وضاءة الجبين فخوراً بما أسدته من تشجيع وقت الذل، وبما أحيته من آمال وقت اليأس، وبما قدمته من تحف

Twitter: @ketab_n

أدبية أثناء ضياع القيم الروحية، فخوراً لتردّد صدى صوتها أيام الصمت.

وأنا الآن أعرض على القارئ العربي صفحة من روائع ذلك الأدب الخفي كانت مطوية، وأحدّثه عن كتاب صدر لأول مرة في باريس في 20 فبراير سنة 1942 كان له أثر عميق في نفوس الفرنسيين فهز مشاعرهم وأثار هممهم، وعمت شهرته فرنسا كلها بل تعدتها إلى العالم الخارجي، فنشر الكتاب في إنجلترا باللغة الفرنسية أولاً ـ وقد تسربت نسخة منه إليها أثناء الاحتلال ـ ثم نقل إلى الإنجليزية فذاع صيته في العالم بأسره، وبادرت مجلة «لايف» الأمريكية بتقديمه إلى ملايين القراء الأمريكيين فأعجبوا به إعجاباً جماً.

أما عنوان هذا اكتاب فهو «صمت البحر « Le Silence de la Mer» وأما مؤلفه فقد انتحل لنفسه اسم «فركور Vercors» وهو اسم مقاطعة فرنسية تَسَمَّى المؤلف باسمها إذ كان يقوم فيها بأعمال المقاومة السرية ضد الألمان. وغني عن القول أن جميع الكتاب الذين أسسو دار «منتصف الليل» انتحلوا شتى الأسماء المستعارة لإخفاء شخصياتهم الحقيقية حتى لايعرضوا أنفسهم للخطر.

وقد ظلت شخصية «فركور» سراً مكتوماً أثناء الاحتلال، ولم يهتد أحد من القراء إلى معرفة الرجل الذي يتستر تحت هذا الاسم المستعار، وقد ذهب الجمهور في سبيل التحقيق منه مذاهب مختلفة، وظن أغلب الناس أنه لا بد كاتب معروف أو شاعر من الشعراء النابهين، مدللين على ذلك بطول باعه في الكتابة وجمال أسلوبه ورقة حسه. وقد خيبت الحقيقة هذا الاعتقاد فظهر أن «فركور» رسّام لا كاتب، وأن كتابه «صمت البحر» أول

Twitter: @ketab_n

عهده بالكتابة والتأليف، إذ لم يسبق له قبل الحرب أن خَطَّ حرفاً، فزاد هذا قرّاءه إعجاباً به.

ألَّف «فركور» قصته في شهر أكتوبر من عام 1941، وهي قصة قصيرة إذ لا تزيد عن ستين صفحة يضمها كتيب صغير الحجم مفعم رقة وروعة.

أما هذه القصة فيرويها شيخ هرم يقطن مع ابنة أخيه الشابة منزلاً بسيطاً في إحدى المدن أو القرى الفرنسية قصد المؤلف عدم تعيينها، فهي مدينة أو قرية تقع في الريف، وقد فُرض عليه أن يضيف في بيته المتواضع ضابطاً ألمانياً، إذ كانت القيادة الألمانية تفرض النزلاء فرضاً على السكان الفرنسيين في المدن الصغيرة التي لا يتوافر فيها مسكن مريح لرجالها.

جاءه ذات يوم ذلك الضابط الألماني وأقام في المنزل واستقر. كان «فرنر فون إبرناك» رجلاً طويلا القامة جميل الطلعة حسن الهندام. وقد اعتاد طوال مدة إقامته أن يقضي بعض الوقت في المساء في غرفة الاستقبال حيث كان يجلس الشيخ يدخن غليوناً وبجانبه ابنة أخيه تطرز ثوباً أو تقرأ كتاباً، وكان «فرنر فون إبرناك» يظل واقفاً بقرب المدفأة يتحدث الليلة بعد الليلة حديثاً طويلاً متنوعاً إلا أنه كان يتحدث دائماً وحده فلا يسمع إطلاقاً صدى لصوته كأنه يقوم بدور تمثيلي في مسرح خلو من النظارة، إذ لم يشاطره الحديث أحد ولم يلتفت إليه أحد، كأن لم يكن ثمة متكلم والإصغاء إليه عبء يتحمله الشيخ والشابة دون حراك أو همس وكل منها منهمك إما في التدخين وإما في التطريز إلى أن ينقطع الضابط عن الكلام من تلقاء نفسه، ويختمه بقوله «أتمنى لكما ليلة سعيدة»، ثم يأوي إلى فراشه.

Twitter: @ketab_n

ظل «فرنر فون إبرناك» يسترسل في الحديث العذب يوماً بعد يوم ، يتناول تارة حبه لبلده ومسقط رأسه يصف جماله، وتارة إعجابه بفرنسا وشغفه بأدبها وأمله في نهضتها من عثرتها ووئامها مع ألمانيا، وتارة أخرى يتحدث عن الموسيقى وولعه بها ولوعاً حدا به إلى أن يؤلف قطعاً موسيقية. هذا والشيخ منصرف إلى التدخين والفتاة لا تعيره ـ أو بالأحرى تبدو وكأنها لا تعيره أي اهتمام، إذ كانت منكبة على تطريزها مطأطئة الرأس لا ترفع بصرها. ويظل شبح الصمت جاثماً في الغرفة لا يبدده إلا صوت الألماني وحده إلى أن تحين ساعة النوم فيقول عبارته المألوفة: «أتمنى لكما ليلة سعيدة».

اعتاد الألماني أن يتحدث كل ليلة كأنه يحدث نفسه دون أن يعتريه كلل أو ملل. وكان أثناء حديثه يرمق الشابة بنظرات عميقة بل ينشب نظراته فيها آملاً أن تتفوه بكلمة واحدة أو ترنو بطرفها إليه وهي هي لم يتغير موقفها كأنها تمثال جميل لا أثر للحياة فيه، تتمسك بأهداب صمت مطبق رهيب يشبه ظلام غابة موحشة، لا تنفرج شفتاها عن كلمة أو ابتسامة.

كان فرنر رجلاً عذب الحديث حلو الشمائل رقيق الشعور مرهف الحس، كان موسيقياً يتحدث عن باخ وبتهوفن حديثاً يدل على أن الموسيقى تملأ جوانبه وتهز مشاعره. كان يعتقد أن ألمانيا بعد أن هزمت فرنسا في معركة شريفة سوف تمد لها يد الصداقة والمساعدة، وأنها تنوي أن تعيش معها حياة هادئة مبنية على حسن الجوار، كما كان يأمل أن تهذب فرنسا قليلاً من غطرسة الألمان وتشذب غصونهم فتجعلهم يقلعون عن القسوة والعنف. وكان يعتقد بل يؤمن أن الحرب التي شنها هتلر في أوروبا يقصد

Twitter: @ketab_n

بها خلق جو من الوئام والسلام بين القطرين المتجاورين، فيكمل أحدهما الآخر وتتوثق بينهما أواصر الصداقة والحب المتبادل.

ثم حدث أن تغيب فرنر فون إبرناك بضعة أيام وسافر إلى باريس، واستمرت حياة الشيخ والفتاة كما كانت، إلا أن شعوراً غريباً غامضاً خالجهما أثناء غياب الضابط الألماني، ولم يصارح أحدهما الآخر بأنه يفكر في الغائب ويشعر بشيء من الأسف والقلق لانقطاعه عنهما، وكأن الفتاة كانت ترقب عودته بلهفة في قرارة نفسها. وفي ذات يوم عاد الضيف وطفق يرمقها بنظرات ملؤها الأسى واللوعة والخيبة وهي منحنية الرأس تلف حول أصابعها خيوطاً من الصوف، ثم قال بصوت عميق: «أريد أن أدلي بكلام خطير»، فكفت الفتاة عن لف الخيوط، ولأول مرة ـ نعم لأول مرة ـ رفعت رأسها وألقت على الضابط نظرات فاحصة فألفته مضطرباً يحرك يديه حركات عصبية وتعلو وجهه أمارات الحزن وخيبة الأمل، ثم فتح فاه وقال بصوت متهدج أجش: «إني قابلت القوم المنتصرين في باريس وتحدثت معهم فهزءوا بي وبددوا أوهامي وأفهموني بعد أن أشبعوني سخرية وتهكماً أنهم يقصدون بهذه الحرب إخضاع فرنسا للأبد والقضاء على قوتها وروحها بنوع خاص، إذ يرون الخطر كل الخطر في بقاء روحها. أفهموني أنهم ينوون خداعها بالوعود والابتسامات حتى تخضع لهم كما تخضع الكلبة الزاحفة. نعم قالوا هذا، وقالوا أن مهمتنا الآن تنحصر في تنفيذ هذه الخطة.»

ثم سكت الضابط منهوكاً وقد تقلص وجهه وتغضنت أساريره وأخذ يحدق في الفتاة بنظرات جامدة، واستطرد بصوت خافت: «لا أمل، لا

Twitter: @ketab_n

أمل». ثم عاوده الصمت من جديد وأحال بصره على صفوف الكتب المرصوصة على رفوف المكتبة ـ كتب راسين وروسو وبورست وبرجسون ـ وقال صارخاً: «إنهم سوف يطفئون الجذوة نهائياً ولن يضيء أوروبا هذا النور». ثم قص مقابلته لأخيه في باريس وقد كان شاعراً رقيق الحس قبل الحرب فألفاه الآن رجلاً قاسياً لا يعرف للرحمة معنى، وقد قال له ضمن ما قال عن الشعوب المغلوبة عامة والفرنسيين خاصة: «إننا سوف نجعلهم يبيعوننا روحهم مقابل طبق من العدس. إن واجبنا الآن أن نشيد لألف سنة مقبلة، ولكن علينا إن نبدأ بالهدم». ثم صرخ الضابط: «إنه كفاح ، إنه كفاح جبار بين الجسد والروح». ثم أطرق هنيهة وقال: «إني طلبت من القيادة العليا نقلي إلى خطوط القتال الأمامية في الميدان الشرقي، وغداً أسافر... إلى الجحيم». فاصفر وجه الفتاة وامتقع لونها واضطربت شفتاها وتصبب جبينها عرقاً. ثم فتح فرنر إبرناك الباب واستند على الحائط وقال بصوت لا نبرة فيه: «أتمنى لكما ليلة سعيدة». ثم ردّ طرفه إلى الفتاة وظل يمعن فيها النظر طويلاً وتمتم «وداعاً» وعيناه الجامدتان شاخصتان إلى الفتاة إلى أن حركت شفتيها فلمع في عينيه بريق غريب وسمعها تتمتم أيضاً «وداعاً»، فافتر ثغره عن ابتسامة حائرة وانصرف.

تلك قصة «فركور»، وهي قصة رائعة لم يقصد من ورائها التهجم على الألمان ورميهم جميعاً بالوحشية وإنما كشف فيها الستار عن شخصية شاب ألماني رقيق الشعور صقلته الموسيقى فهذبت نفسه وملأت جوارحه عطفاً ونبلاً، وخدعته الدعاية المغرضة. ولما تبين الحقيقة سافرة وأدرك مبلغ الخداع الذي انطوت عليه جوارحه، آثر أن يقذف بنفسه في أتون الحرب

Twitter: @ketab_n

في الميدان الشرقي ـ في الجحيم كما قال ـ حيث قد يلقى حتفه على أن يحيا ليرى انتصار القوة الغاشمة. أظهر المؤلف سجايا الضابط الحميدة وسعة آفاقه في الحياة وسمو أفكاره، كي يقيس بها بل يعكس عليها صورة سائر الغزاة وأغراضهم الحقيقية من الفتح ، قاصداً بذلك أن ينبه أذهان مواطنيه ويرفع عن أبصارهم غشاء الخداع الذي طفق الألمان ينسجونه بمهارة فائقة ليدخلوا في روع الفرنسيين أنهم لا يضمرون لهم شراً ولا يكنون لهم ضغينة، حتى تنطلي عليهم الحيلة فيصدقوا وعودهم المعسولة ويستسلموا لهم آمنين وادعين، وحينئذ ينقض عليهم الغزاة انقضاض النسر على فريسته، يسلبون الأرواح ويعملون على إفناء تراث فرنسا الخالد وتشتيت شملها وتقطيع أوصالها إرباً إرباً. أراد «فركور» أن يميط اللثام عن حيل الألمان الغادرة حتى لا يُـخدع بها الشعب الفرنسي كما خُدع به الضابط الألماني نفسه، لكي يعتصم الفرنسون بحبل الصبر ويغذوا نفوسهم بالآمال وكي يشحذوا همهم ويقاتلوا العدو ما بقي فيهم رمق، ويجتازوا محنتهم موفوري الكرامة.

وهي أيضاً قصة فرنسا المتألمة التي قهرتها القوة المادية الغاشمة فلم تخضعها، بل احتفظت بروحها سليمة لم ينل منها العسف الذي أصاب جسدها، ولم تمهد للظافر طرقاً للقضاء على فكرها الرفيع أو لإفناء كنزها العقلي المجيد، ولم يتطرق إليها الشك في مصيرها أو في مستقبلها ولم تتخل عن مثلها العليا ولم تترك لليأس سبيلاً إلى قلبها، وإنما صبرت وتجلدت وقاومت مقاومة سلبية وإيجابية، مادية وروحية، تجاوزت حدود طاقة البشر وتألمت وكافحت وتحملت وناضلت في صمت رهيب يخفي تيارات جارفة كصمت البحار.

Twitter: @ketab_n

وقد بيّن المؤلف أن العاطفة قد تغير الأفئدة فتملكها حيناً، ولكن العقبات والحواجز الدنيوية لا تلبث أن تعوق نموها وتمنع ظهورها. فقد حاولت الفتاة بادئ ذي بدء كبت شعورها نحو الفتى الألماني لأنه كان ينتمي إلى قوم فاتحين، ولأنه أحد الأعداء المغتصبين الذين جَرَّعوا الفرنسيين كؤوس الذل والمرارة حتى الثمالة، ولكن روحها هامت به إذ شغفت بشاعريته ورِقة إحساسه وأعجبت بميوله الموسيقية الرفيعة، فغلبها نبل أخلاقه وسمو تفكيره وسعة آفاقه فاستسلمت لحبها بعد أن كافحته طويلاً ولكنها أسرَّته في نفسه وطوته في قلبها لم تفض به للفتى وهي موقنة بأن الفتى مدله في غرامه بها. وكلاهما لا يبوح للآخر بسره، وكلاهما يشعر أنهما مؤتلفان روحاً وعقلاً، وأن أحدهما يكمل الآخر. ولكن الفتاة لم تذعن لهواها ولم تخضع لغريزتها، وآثرت أن تكتم حبها وتطويه في صمت... كصمت البحار!

فؤاد وصفي أبو الدهب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

❖

سبقته عملية استعراض كبيرة لفرقة عسكرية. جاء جنديان أولاً، كلاهما أشقر للغاية، أحدهما نحيل متهالك، والآخر مربع الشكل، ذو يدين كأيدي قاطعي الأحجار. نظر إلى المنزل دون أن يدخلا. وفيما بعد أتى صف ضابط كان الجندي المتهالك يصحبه. تحدثا إليَّ بما افترضا أنه الفرنسية فلم أفهم كلمة. ومع ذلك أطلعتهما على الغرف الخالية فبدا عليهما السرور.

وفي صباح اليوم التالي اخترقت الحديقة ناقلة حربية رمادية ضخمة. انتزع منها السائق ومعه جندي شاب، نحيف وباسم الطلعة، صندوقين وحزمة مغلّفة بقماش رمادي. صعدوا بكلّ شيء إلى أكثر الغرف اتساعاً ورحلت الناقلة. بعد عدة ساعات سمعت موكب خيّالة وظهر ثلاثة فرسان. ترجّل أحدهم واتجه لزيارة البناء الحجري العتيق. ولدى عودته دخل الجميع، رجالاً وجياداً، إلى المخزن الذي أستخدمه كورشة. رأيت فيما بعد أنهم قد أولجوا المسّاكة التي أستعملها على مائدة العمل بين حجرين في إحدى ثغرات الجدار، وربطوا حبلاً بالمسّاكة ثم ربطوا الجياد في الحبل.

لم يحدث جديد خلال يومين، ولم أرَ أحداً غيرهم. كان الفرسان

Twitter: @ketab_n

يخرجون في ساعة مبكرة مع جيادهم ويعودون بها في المساء. وهم أنفسهم كانوا ينامون على القش الذي ملأوا به المخبأ الموجود في داخل المخزن.

ثم عادت الناقلة الكبيرة صباح اليوم الثالث. حمل الشاب الباسم الطلعة صندوقاً واسعاً على كتفه وأحضره إلى الغرفة. تناول بعد ذلك حقيبته التي كان قد وضعها في الغرفة المجاورة. نزل وطلب إلى إبنة أخي بعض البياضات، مخاطباً إيّاها في فرنسية سليمة.

Twitter: @ketab_n

❖

ابنة خي هي التي ذهبت تفتح عندما دق الباب. كانت قد انتهت من تقديم القهوة لي كما جرت عليه العادة كلَّ مساء (فالقهوة تجلب لي النوم). كنتُ جالساً في نهاية الغرفة يشملني الظلام إلى حد ما. والباب يفضي إلى الحديقة مباشرة. على طول المنزل يمتد إفريز من البلاط الأحمر، وهو مريح للغاية عندما يسقط المطر. وتباهت إلى سمعنا أصوات خطوات تقرع الرصيف. نظرت إليَّ إبنة أخي ووضعت قدحها، أما أنا فقد احتفظت بقدحي بين يدي.

هبط الظلام ولم يكن الجو بارداً جداً: فشهر نوفمبر من هذا العالم لم يكن شديد البرودة. رأيت الظلَّ العريض، والقبعة المسطحة، والمعطف الواقي من المطر الملقى على الكتفين مثل رداء بلا أكمام.

كانت إبنه أخي قد فتحت الباب وظلّت صامتة. أراحت الباب على الحائط وهي نفسها كانت قد وقفت مستندة إلى الحائط دون أن تنظر إلى شيء. أما أنا فقد كنت أحتسي قهوتي في رشفات صغيرة.

قال الضابط، وكان لا يزال واقفاً عند الباب: «إذا سمحتم.» وأتى

Twitter: @ketab_n

برأسه تحية مقتضبة. وبدا وكأنه يقيس الصمت، ثم دخل.

انزلق المعطف على مقدمة ذراعه. خلع قبعته بعد أن أدّى التحية العسكرية. اتجه نحو ابنة أخي وابتسم بتحفظ وهو يحني صدره انحناءة خفيفة للغاية، ثم واجهني وانحنى لي انحناءة أكثر خطورة. قال: «أنا أدعى فرنر فون أبرناك». وقد وجدت من الوقت ما استطعت أن أفكر فيه بسرعة: «إن هذا الاسم ليس ألمانياً، فهل تراه ابن مهاجر بروتستنتي؟». ولكنه أضاف: «إنني شديد الأسف».

وغاصت في الصمت تلك الكلمة الأخيرة التي لفظها بتباطؤ. كانت ابنة أخي قد أغلقت الباب ووقفت موالية ظهرها للجدار تنظر أمامها مباشرة. وأنا لم أكن قد نهضت. وضعت قدحي الفارغ بتؤدة على الأرغن وعقت يدي وانتظرت.

تابع الضابط حديثه قائلاً: «كان ذلك بالطبع ضرورياً. ولو كان في الإمكان أن أتجنبه لفعلت. وأعتقد أن مرافقي سيفعل كل شيء في سبيل راحتكم». كان واقفاً في منتصف الحجرة. كان طويلاً ونحيفاً للغاية. ولو أنه رفع ذراعه للمست يده أخشاب السقف.

كان رأسه منحنياً إنحناءة بسيطة إلى الأمام كما لو كان العنق غير ملتصق بكتفيه وإنما يقوم على بداية الصدر. لم يكن أحدب، ولكن هذا الوضع كان يجعله يبدو وكأنه كذلك. كانت فخذاه وكتفاه الضيقتان غريبة. كان الوجه مليحاً. تبدو عليه الرجولة ويميزه خطان غائران على طول الخدين. لم يكن باستطاعة المرء رؤية عينيه اللتين كان يحجبهما الظل الآتي من الرواق ولكنهما بدتا لي صافيتين. وكانت شعراته شقراء ناعمة، ملقاة إلى الخلف،

Twitter: @ketab_n

وتبدو في التماع الحرير تحت ضوء المصباح المدلى من السقف.

تطاول الصمت، وتحول شيئاً فشيئاً إلى صمت كثيف مثل ضباب الصباح. صمت كثيف وراسخ. فسكون إبنة أخي، وسكوني أنا أيضاً بلا ريب، كانا يثقلان هذا الصمت، ويحولانه إلى رصاص. والضابط نفسه، وقد أخذته الحيرة، ظل ثابتاً، إلى أن رأيت ابتسامة تولد على شفتيه أخيراً. كانت ابتسامته رزينة جداً لا تشوبها أي سخرية. أتى بحركة من يده غاب عني معناها. واستقرت عيناه على إبنة أخي، التي كانت لا تزال مستقيمة ومتصلبّة، واستطعت أن أتأمل على مهل منظره الجانبي القوي، وأنفه الدقيق البارز. كنت أرى، خلال الشفتين نصف المضمومتين، سنّاً ذهبية تلتمع. وأخيراً حوَّل عينيه ونظر إلى النار في المدفأة وقال: «إنني لأشعر بتقدير كبير للأشخاص الذين يحبون وطنهم»، ورفع رأسه فجأة، ورمق تمثال الملاك المحفور بأعلى النافذة وقال: «بوسعي الآن أن أصعد إلى غرفتي، ولكنني لا أعرف الطريق». فتحت إبنة أخي الباب الذي يؤدي إلى السّلم الصغير وبدأت ترتقي الدرجات دون أن تلقي أيّ نظرة إلى الضابط، كما لو أنها كانت بمفردها. تبعها الضابط، ورأيتُ حينذاك أنّ له ساقاً متصلّبة.

سمعتهما يجتازان المدخل، وتجاوبت أصداء خطوات الألماني في الممر، ضعيفة ثم قوية على التوالي، وفُتح باب ثم أعيد إغلاقه. ورجعت إبنة أخي. استعادت قدحها واستأنفت شرب قهوتها. أشعلتُ غليوني. وبقينا صامتين عدة دقائق. قلت: «الحمد لله، يبدو عليه أنه مريح». هزّت إبنة أخي كتفيها. سحبتْ سترتي القطيفة على ركبتيها وأكملت الرقعة الخفية التي كانت قد بدأت في حياكتها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

❖

في صباح اليوم التالي نزل الضابط أثناء تناولنا طعام الإفطار في المطبخ. وثمة سّلم آخر يؤدي إلى هذا المطبخ، ولست أدري إذا ما كان الألماني قد سمعنا أم أنها كانت مجرّد مصادفة أن يسلك هذا الطريق. توقف عند العتبة وقال: «قضيت ليلة طيبة. أتمنى أن تكون ليلتكما أيضاً كذلك». كان ينظر إلى الحجرة الواسعة وهو يبتسم. وبما أنه لم يكن لدينا إلا القليل من الخشب ومن الفحم أقل من القليل، فقد أعدتُ طلاءها، وجلبنا إليها بعض قطع الأثاث، بعض النحاسيات وبعض الأطباق القديمة، لكي نقضي فيها فترة الشتاء. وكان يتفحص هذا وكان باستطاعة المرء أن يرى لمعان أطراف أسنانه الشديدة البياض. رأيت أن عينيه لم تكونا زرقاوين كما اعتقدت، ولكنهما كانتا ذهبيتين. وأخيراً اجتاز الحجرة وفتح الباب المؤدي إلى الحديقة. سار خطوتين وتراجع لكي يرى منزلنا الطويل المنخفض الذي تغطيه المكعبات ذات القرميد الأسمر. وازدادت ابتسامته اتساعاً.

قال وهو يشير بظهر يده إلى البناية التي تسمح برؤيتها الأشجار العارية: «عمدتكم العجوز قال لي بأن أسكن القصر، على قمة التل الصغير. ولكنني

Twitter: @ketab_n

سوف أهنئ رجالي على خديعتهم، فها هنا قصر أوفر جمالاً.»

ثم إنه أغلق الباب، وحيّانا من خلال الزجاج، ومضى.

وعاد في المساء، في نفس الساعة التي جاء فيها الليلة السابقة. كنا نتناول قهوتنا. طرق الباب. ولكنه لم ينتظر أن تفتح له إبنة أخي. فتح بنفسه وقال «أخشى أن أكون مزعجاً لكما. سأمرّ من باب المطبخ إذا فضلتما ذلك، ويمكنكما حينئذ أن تغلقا هذا الباب. بالمفتاح.» اجتاز الحجرة، ومكث لحظة ويده على مقبض الباب وأخيراً أحنى نصفه الأعلى إنحناءة خفيفة: «أتمنى لكما ليلة سعيدة»، وخرج. لم يحدث أن أغلقنا الباب بالمفتاح إطلاقاً. ولست على يقين من أن أسباب هذا الامتناع كانت واضحة ولا تشوبها شائبة. وكنا قد عقدنا، إبنة أخية وأنا، ميثاقاً خفياً بألاّ نغير شيئاً من حياتنا حتى ولو أبسط التفاصيل، كما لو كان الضابط غير موجود، أو كما لو أنه كان شبحاً. إلا أنه من المحتمل أن تكون عاطفة أخرى قد امتزجت في قلبي بهذا القرار: فليس بوسعي أن أجرح إنساناً دون أن أتألم، حتى ولو كان هذا الإنسان عدواً لي.

ظل هذا المشهد يتكرر كل يوم خلال مدة طويلة، تتجاوز الشهر. كان الضابط يطرق الباب ويدخل. وكان يلفظ بعض الكلمات عن حالة الجو ودرجة الحرارة، أو عن بعض الموضوعات الأخرى التي على نفس المستوى من الأهمية: وكانت الخاصية المشتركة بينها جميعاً أنها لم تكن تنتظر أي إجابة. كان دائماً يتمهل قليلاً لدى عتبة الباب الصغير، وينظر فيما حوله. وكانت ابتسامة خفيفة جداً تنم عن النشوة التي يبدو أنه كان يحس بها أثناء هذا التفحص ـ نفس التفحص كل يوم، ونفس النشوة. وكانت

Twitter: @ketab_n

عيناه تتمهلان عند منظر إبنة أخي الجانبي المطرق، الدائم القسوة والجمود. وعندما كان يحول نظرته عنها أخيراً، كنتُ أصبح متأكداً من قدرتي على أن أقرأ فيها نوعاً من الرضا الباسم. ثم إنه كان يقول وهو ينحني: «أتمنى لكما ليلة سعيدة» ويخرج.

وتبدلت الأمور فجاة ذات مساء. سقط في الخارج ثلج رقيق ممزوج بالمطر، قارس ويجلب البلل بصورة مخيفة. كنت أشعل في المدفاة أحطاباً كثيفة احتفظت بها لمثل هذا اليوم. وبالرغم مني كنت أتصور الضابط في الخارج، وأتصور المظهر المغطى بالثلج الذي سيكون عليه عندما يدخل. ولكنه لم يأت. ومرّت ساعة مجيئه ببطء، وكنت أثور على نفسي إذ أكتشف أنه يشغل تفكيري. كانت إبنة أخي تشتغل ببطء، ويبدو عليها المهارة الفائقة.

وأخيراً سُمع وقع خطوات. ولكنها كانت آتية من داخل المنزل. وفي صوتها غير المتناسق تعرفتُ على مشية الضابط. فهمتُ أنه قد دخل من الباب الآخر وأنه كان الآن قادماً من غرفته، وأنه لم يرغب ـ دون شك ـ في الظهور أمام أعيننا في زي مبتل وبلا هيبة: كان قد بدَّلَ ملابسه أولاً.

نزلت الخطوات السّلم، واحدة قوية، تتبعها أخرى ضعيفة. انفتح الباب وظهر الضابط مرتدياً زياً مدنياً. كان البنطلون مصنوعاً من قماش الفانلة الرّمادي السميك، وكانت السترة ـ التي تتخللها عرى قاتمة ـ من قماش التويد الأزرق الفاتح. كانت عريضة فضفاضة تستلقي في إهمال أنيق. وتحت السترة كان يرتدي قميصاً من صوف ثقيل غير مغسول يبرز صدراً دقيقاً مليئاً بالعضلات.

Twitter: @ketab_n

قال: «أرجو قبول معذرتي. أنا لا أحس بالدفء. لقد كنتُ مبتلاً جداً وغرفتي شديدة البرودة. سأستدفئ بناركما عدة دقائق».

جثا أمام المدفأة بصعوبة ومدّ يديه. كان يدور بهما ثم يرجع فيدور بهما مرة ثانية. وكان يقول «حسناً!.. حسنا!..». لف حول نفسه وعرّض ظهره للنار بينما هو جاثٍ ممسك إحدى ركبتيه بين ذراعيه.

قال: «ليس الأمر صعباً هنا. الشتاء في فرنسا فصل لطيف. أمّا عندنا فهو شديد القسوة. جداً. الأشجار هي أشجار الصنوبر، والغابات كثيفة متداخلة، والثلج الذي يسقط فوقها ثقيل. أما هنا فالأشجار رقيقة والثلج الذي يسقط عليها يشبه الدانتيلا. عندنا يخيل للمرء أنّ ثمة ثوراً هائلاً قويّاً هو بحاجة إلى قوته ليعيش. أما هنا، فإنها الروح، والفكر الرقيق الشاعري».

كان صوته مكتوماً للغاية، قليل الرنين جداً. وكانت طريقة نطقه خفيفة لا تبرزها إلاّ الحروف الساكنة الثقيلة فقط. كان في مجموعه يشبه طنيناً أقرب إلى الغناء.

نهض. اعتمد بمقدمة ذراعه على سقف المدفاة، وأراح جبهته على ظهر يده. كان مفرط الطول حتى أنه كان يضطر إلى الإنحناء قليلاً، أما أنا فما كنت لأبلغ القمة برأسي.

ظل بلا حراك فترة طويلة، بلا حراك وبلا كلام. كانت إبنة أخي تشتغل بحيوية آلية. لم تلتفت بعينها إليه، ولا مرة واحدة، أما أنا فكنت أدخن مسترخياً نصف استرخاء في مقعدي الوثير. كنت أفكر في أن كثافة صمتنا لا يمكن أن تهتز، وأن الرجل سيلقي إلينا بالتحية ويذهب.

Twitter: @ketab_n

ولكن الطنين الموّقع ارتفع من جديد، ولا أستطيع أن أقول إنه حطم الصمت، بل لقد بدا كما لو أنه قد نبع منه.

قال الضابط دون أن يتحرك: «لقد أحببت فرنسا دائماً. كنتُ طفلاً أثناء الحرب العالمية الأولى وما كنتُ أفكر فيه آنذاك لا اعتبار له. ولكني أحببتها دائماً منذ ذلك الحين. لكن ذلك كان عن بعد. مثل الأميرة النائية». ومضت فترة قبل أن يقول بنبرة خطيرة: «وذلك بسبب والدي».

استدار، واعتمد على طول جدار المدفأة، ويداه في جيبي سترته. ارتاح رأسهُ قليلاً على الحاجز، ومن وقت لآخر كان يحك فيه مؤخرة رأسه بحركة تشبه حركة الوعل. كان هناك مقعد خال شديد القرب منه، ولكنه لم يجلس عليه. هو لم يجلس أبداً حتى آخر يوم. نحن لم نعرض عليه ذلك، ولم يفعل هو شيئاً من شأنه أن يعتبر نوعاً من الألفة. أعاد: «بسبب والدي. فقد كان وطنياً كبيراً. وكانت الهزيمة عنيفة الألم، ومع ذلك فقد أحب فرنسا. أحب بريان. كان يؤمن بجمهورية فيمار وبريان. كان شديد الحماسة وكان يقول: إنه سيوحدنا مثلما يتحد زوج وزوجته. وكان يعتقد بأن الشمس ستشرق أخيراً على أوروبا...»

كان ينظر إلى إبنة أخي وهو يتكلم. لم يكن ينظر إليها كما كان ينظر رجل إلى امرأة، ولكن كما لو كان يتأمل تمثالاً. ولقد كانت، في الواقع، كالتمثال تماماً. تمثال متحرك، ولكنه تمثال على أي حال.

ـ ... إلاّ أن بريان قد مُني بالهزيمة. رأى أبي أن فرنسا كانت لا تزال يقودها البرجوازيون العتاة. أنا س من أمثال دو وندیل، أو هنري بوردو،

Twitter: @ketab_n

أو ماريشالكم العجوز. قال لي: «لا يجب عليك أبداً أن تذهب إلى فرنسا قبل أن يكون باستطاعتك أن ترتدي هناك الخوذة والحذاء الطويل». وكان عليّ أن أمنحه وعداً لأنه كان يقترب من الموت. وفي فترة الحرب عرفتُ أوروبا كلها ما عدا فرنسا.

ابتسم وقال، كما لو أن ذلك كان نوعاً من الإيضاح:

ـ إنني موسيقي.

سقطت قطعة من الخشب وتدحرجت بعض الجمرات خارج الموقد. انحنى الألماني وجمع الجمرات بالملقط، وتابع الحديث قائلاً:

ـ لستُ عازفاً، ولكنني أؤلف الموسيقى. وهذا العمل هو كلّ حياتي. وهكذا يصبح شيئاً مضحكاً بالنسبة لي أن أرى نفسي رجل حرب. ومع ذلك فلستُ نادماً على تلك الحرب. كلا. فأنا أعتقد أن ذلك سيتمخض عن أشياء عظيمة.

اعتدل، وأخرج يديه من جيوبه، واحتفظ بهما نصف مرفوعتين: ـ التمس عفوكما. فربما تأتّى لي أن أجرح شعوركما. ولكني أعتقد فيما كنت أقول بنية خالصة جداً، أعتقد فيه عن حب لفرنسا. ستحدث أشياء عظيمة بالنسبة لألمانيا وبالنسبة لفرنسا. وأعتقد، بعد والدي، بأن الشمس سيلتمع ضياؤها فوق أوروبا.

تقدم خطوتين وأحنى صدره. وككل مساء قال: «أتمنى لكما ليلة سعيدة» ثم خرج.

أنهيتُ غليوني في صمت. سعلتُ قليلاً وقلت: «ربما كان من غير

Twitter: @ketab_n

الإنساني أن نرفض التحدث إليه ولو بكلمة واحدة.» رفعت إبنه أخي وجهها، وارتفع حاجباها عالياً جداً، فوق عينين ملتمعتين حانقتين. وشعرت بنفسي أحمرّ قليلاً من الخجل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

❖

منذ ذلك اليوم وتلك هي طريقته الجديدة في زياراته. لم نعد نراه في الحّلة الرسمية إلا نادراً. كان يبدل ملابسه أولاً ثم يدق الباب علينا بعد ذلك. أفكان هذا من أجل أن يجنبنا رؤية الزي المعادي لنا؟ أما من أجل أن يجعلنا ننساه، لكي نتعود على شخصه؟. كلا السببين دون شك. كان يدق الباب، ويدخل دون أن ينتظر إجابة هو على علم بأننا لن نعطيها له. وكان يفعل ذلك في براءة طبيعية، ويأتي ليستدفئ بالنار ـ هذا هو العذر الذي كان يتعلل به للمجيء ـ عذر لم يكن هو ولا نحن مخدوعين به، عذر لم يكن يسعى حتى لإخفاء صبغته التقليدية المريحة.

لم يكن من المحتوم أن يأتي كل مساء، إلاّ إنني لا أتذكر أنه تركنا في إحدى الأمسيات دون أن يكون قد تكلم. كان ينحني على النار، وبينما يعرّض جزءاً من جسده لحرارة الوهج، كان صوته الرنان يرتفع بهدوء، وطوال تلك الأمسيات، كان ثمة مونولج لا ينتهي، عن تلك الموضوعات التي كانت تعيش بقلبه ـ بلده، الموسيقى، فرنسا ـ لأنه لم يحاول ولا مرة واحدة أن يحصل منا على إجابة، أو على موافقة، أو حتى على نظرة. لم يكن

Twitter: @ketab_n

يتحدث طويلاً ـ لم يطل حديثه أبداً عنه في الليلة الأولى ـ كان ينطق ببعض الجمل، تعترضها أحياناً فترات صمت، أو تتداخل أحياناً أخرى في رتابة صلاة مستمرة. أحياناً كان يقف بلا حراك بجوار المدفأة مثل التمثال، وفي أحيان أخرى كان يقترب من شيء، أو من رسم على الحائط، دون أن يقطع حديثه. ثم أنه كان يصمت، وينحني ويتمنى لنا ليلة سعيدة .

ذات مرة قال (وكان ذلك من الأيام الأولى لزياراته):

ـ أين هو الاختلاف بين النار عندنا وبين تلك النار؟ الخشب والشعلة والمدفأة متشابهة بكل تأكيد. إلاّ أن الضوء ليس كذلك. فهذا الضوء يتوقف على الأشياء التي ينيرها، وعلى سكان هذه الحجرة، وعلى قطع الأثاث والجدران والكتب التي تملك الرفوف...

«ما الذي جعلني أعشق هذه الحجرة إلى هذا الحد؟ ـ قال ذلك وقد بدت عليه دلائل التفكير ـ إنها ليست رائعة الجمال ... عفواً...!» وضحك.. «أريد أن أقول : ليست هذه إحدى حجرات المتاحف. فلا يقول أحد عن قطع أثاثكم: هذه أعاجيب.. كلا.. إلاّ إن لهذه الحجرة روحاً. كل هذا المنزل له روح.»

كان واقفاً أمام رفوف المكتبة، وكانت أصابعه تتابع الأغلفة، ملامسة إياها لمساً خفيفاً:

ـ ... بلزاك، باريس، بودلير، بومارشيه، بوالو، بوفون.... شاتوبريان، كورني ديكارت، فينيلون، فلوبير... فرانس، جونييه، هوجو... يا له من نداء!» قال ذلك بضحكة خافتة وهو يهز رأسه. «ولم أصل بعد إلى

Twitter: @ketab_n

النهاية.... فلا زال هناك موليير، ورابليه، وراسين، وباسكال، وستندال، وفولتير، ومونتيني، وجميع الآخرين!...». واستمرت أصابعه تنزلق ببطء على طول الكتب، ومن وقت لآخر، كانت تفلت منه دون أن يعي صيحة «آه!»، عندما كان، على ما أعتقد، يقرأ اسماً لم يكن يفكر فيه. وتابع حديثه قائلاً: «عند ذكر الإنجليز يذهب التفكير في الحال إلى شكسبير، والإيطاليين إلى دانتي، والإسبان إلى سرفانتيس، أما نحن فعندنا جوته. وبعد ذلك يجب أن يستمر البحث. ولكن حين يقول قائل: وفرنسا؟ عندئذ من ذا الذي يبرز على التو؟ موليير؟ راسين؟ هوجو؟ فولتير؟ أم أي شخص آخر؟. إنهم يتزاحمون، مثل جمهور غفير عند مدخل أحد المسارح، لا يعرف المرء أي واحد يجب أن يسمح له بالدخول أولاً.»

استدار وقال برزانة:

ـ ولكن إذا ما تعلق الأمر بالموسيقى فإننا نرى لدينا حينئذ: باخ، هندل، بيتهوفن، فاجنر، موزار... أيّ تلك الأسماء يأتي أولاً؟

«ومع ذلك فقد تطاحنّا!». قال ذلك ببطء وهو يحرك رأسه. عاد إلى المدفأة ووقعت عيناه الباسمتان على منظر إبنة أخي الجانبي. «ولكن ستكون هذه هي الحرب الأخيرة! لن نشتبك بعد الآن، وإنما سنتزوج!» انكمش جفناه، والخطان الغائران في خديه أبرزهما تجويفان تحت الوجنتين، وظهرت الأسنان البيضاء. قال بمرح: «نعم، نعم!» ثم أتى بهزة صغيرة من رأسه كررت ذلك التأكيد، وتابع الحديث قائلاً بعد فترة صمت: «عندما دخلنا إلى سانت كنت سعيداً لأن السكان أحسنوا استقبالنا. كنت سعيداً جداً. كنت أفكر: ستكون المهمة سهلة. ثم رأيت أن المسألة لم تكن على

Twitter: @ketab_n

هذا النحو إطلاقاً، وإنما كان السبب هو الجبن.» كانت نبرته قد أصبحت خطيرة. « احتقرتُ هؤلاء الناس، وقد خفت على فرنسا. كنت أفكر: هل أصبحت هكذا حقاً؟» وهز رأسه : «كلا! كلا! لقد رأيتها بعد ذلك، والآن أنا سعيد بوجهها القاسي.» التقت نظرته بنظرتي ـ التي حوّلتها وتباطأت قليلاً عند أجزاء متفرقة من الحجرة، ثم عادت إلى الوجه المفرط في الجمود الذي كنت قد تركته.

ـ أنا سعيد إذ عثرت هنا على شيخ فاضل وآنسة صموتة. علينا أن نقهر هذا الصمت، علينا أن نقهر صمت فرنسا. هذا شيء يملؤ نفسي بالرضا.

كان ينظر إلى إبنة أخي، إلى زاوية وجهها الصافية العنيدة المغلقة. كان يتابع النظر في صمت وبإلحاح رزين، وكانت لا تزال ترفرف عليه مع ذلك بقايا ابتسامة. كانت إبنة أخي تشعر بهذا وكنت ألاحظ حمرة الخجل تعلوها قليلاً وترتسم شيئاً فشيئاً تجعيدة بين حاجبيها. كانت أصابعها تجذب الإبرة بحرية مفرطة ويجفاف مفرط، مجازفة بقطع الخيط.

واستمر الصوت البطيء الرنان قائلاً: نعم، إن ذلك لأفضل على هذا النحو، أفضل بكثير. فهو يخلق اتحاداً قوياً ـ اتحاداً كل منا فيه عظمة.... هناك قصة جميلة جداً من قصص الأطفال، قرأتها أنا، وقرأتموها أنتم، وقرأها كل الناس. ولست أدري إذا ما كانت تحمل نفس العنوان في كِلا البلدين. أنها عندنا تدعى DAS TIER UND DIE SCHÔNE ـ أي الحسناء والوحش. يا للحسناء المسكينة! أخذها الوحش تحت رحمته ـ سجينة وعديمة الحيلة ـ ، في كل ساعة من ساعات النهار كان يفرض

Twitter: @ketab_n

عليها وجوده الثقيل الكريه... والحسناء متكبرة، متمنعة، وقد اصطنعت القسوة.. إلا أن للوحش من القيمة أكثر مما يبدو. أوه، إنه ليس مفرطاً في الرقة! فهو اخرق، بهيمي، ويبدو فظاً بإزاء الحسناء الوديعة!.. ولكن له قلباً، نعم، إن له روحاً تهفو إلى السمو، لو شاءت لحسناء. ولكن مشيئة الحسناء تحتاج إلى وقت. ومع ذلك فإنها تكشف شيئاً فشيئاً التماعاً في أغوار عيني السجان الكريه، شعاعاً من الممكن أن تقرأ فيه الصلاة والحب. وبدأ شعورها بالقبضة المحكمة وبقيود سجنها يقل. وتكف عن الكره، فقد مس قلبها ذلك الإصرار. وتمدّ يدها... وفي الحال يتبدل الوحش، ينفك السحر الذي كان قد حول شكله إلى الصورة البربرية: إنه الآن فارس رائع الجمال عظيم الصفاء، رقيق مهذب، كل قبلة من الحسناء تخلع عليه على الدوام صفات نورانية. واتحادهما يخلق سعادة علوية. وأطفالهما، الذين يجمعون ويمزجون مواهب والديهم، هم أجمل أطفال حملتهم على ظهرها الأرض..

«ألم تحبوا هذه الحكاية؟ أما أنا فقد أحببتها دائماً. كنت أعيد قراءتها بلا انقطاع، وكانت تدفع بي للبكاء. أحببت الوحش على الخصوص، لأنني كنت أفهم عذابه، ولا زلت إلى اليوم أراني منفعلاً عندما أتحدث عنه.»

سكت، وأخذ نفساً عميقاً، ثم انحنى:

«أتمنى لكما ليلة سعيدة».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

❖

ذات مساء، ـ وكنت قد صعدتُ إلى غرفتي لكي أحضر منها بعض التبغ، ـ سمعت لحن الأرغن يتصاعد. كانت القطع التي تُعزف هي هذه البريلود والفوج رقم 8 التي كانت ابنة أخي تعمل فيها قبل الهزيمة. كانت الكراسة قد بقيت مفتوحة عند هذه الصفحة، ولكن، حتى ذلك المساء، لم تكن ابنة أخي قد عزمت على القيام بتمرينات جديدة. أثار في نفسي استئنافها لوناً من السرور والدهشة: تُرى أيّ حاجة داخلية دفعت بها فجأة إلى أن تقرر ذلك؟

لم تكن هي التي تعزف. فهي لم تغادر مقعدها ولم تترك شغلها. وأتت نظرتها للقاء نظرتي، وبعثت إليّ برسالة لم أفك رموزها. تأملت نصف الجسد الأعلى الطويل القابع أمام الآلة، والقفا المحني، واليدين الطويلتين، الرقيقتين، العصبيتين، ذات الأصابع التي كانت تنتقل على المفاتيح مثل أفراد مستقلين.

عزفَ البريلود فقط. نهضَ وذهب إلى المدفأة.

Twitter: @ketab_n

قال بصوته الخافت الذي لم يتجاوز ارتفاعه الهمس:

ـ ليس هناك أعظم من ذلك. أعظم؟ ما تلك بالكلمة المطلوبة. إنه لشيء خارج عن حدود الإنسان، خارج عن حدود جسده. إن ذلك ليجعلنا نفهم، كلا: نخمن.. كلا: نحدس.. أجل نحدس ما هي الطبيعة.. الطبيعة الإلهية التي تستعصي على المعرفة.. الطبيعة غير المحدودة للروح الإنساني.

بدا، في صمت حالم، وكأنه يكتشف أفكاره الخاصة. وكان يقرض إحدى شفتيه برفق.

ـ باخ.. لا يمكن أن يكون إلا ألمانياً. إن لأرضنا هذه الخاصية، الخاصية اللاإنسانية. أعني تلك التي ليست خاضعة لمقياس الإنسان.

مرّت فترة صمت، ثم استأنف.

ـ هذه الموسيقى، إنني أحبها، تثير إعجابي، إنها تفعمني، وهي تفعل في نفسي ما يفعله وجود الله، ولكن... ولكن ليست هذه موسيقاي. «أريد أن أضع موسيقى على مقياس الإنسان: وهذا أيضاً طريق لبلوغ الحقيقة. إنه طريقي. لا أريد ولا أستطيع أن أتبع طريقاً آخر. وأنا أعرف ذلك، الآن. أعرفه معرفة تامة. منذ متى؟ منذ أن أقمت هنا.»

استدار لنا، وأراح ظهره على سقف المدفأة الذي ارتكز عليه بأصابعه ثم عرّض وجهه للنار من بين مقدمتي ذراعيه، كما لو كان ينظر من خلال قضبان بوابة. وأصبح صوته أكثر خفوتاً، وأكثر طنيناً:

ـ الآن أنا بحاجة إلى فرنسا. ولكني أطلب الكثير: أطلب منها أن تستقبلني. أن أكون لديها مثل الغريب، فهذا لا يعني شيئاً ـ، سواء كنت

Twitter: @ketab_n

مسافراً أم فاتحاً. إنها عندئذ لا تهب شيئاً ـ لأن أحداً لا يستطيع أن يأخذ منها شيئاً. وإن ثراءها، ثراءها العظيم، ليس بوسع أحد أن يغزوه. يجب أن يشربه المرء من ثديها، يجب أن تقدم إليك ثديها بحركة الأمومة وعاطفتها.. اعلم جيداً أن ذلك يتوقف علينا.. إلا أنه يتوقف عليها هي أيضاً. يجب عليها أن ترضى بأن تفهم ظمأنا، وأن ترضى بإروائه... أن ترضى بالاتحاد معنا.

اعتدل، دون أن يحول ظهره عنا، ولا زالت أصابعه معلّقة في الحجر. قال وقد ارتفع صوته قليلاً:

ـ أنا، يجب عليّ أن أعيش هنا طويلاً. في منزل مشابه لهذا المنزل. مثل ابن لقرية مشابهة لهذه القرية... يجب..

سكت، والتفت نحونا. كان ثغره يبتسم، ولكن ليست عيناه اللتين تنظران إلى ابنة أخي. قال:

ـ سنذلل العقبات.. الإخلاص دائماً يتخطى العقبات.

«أتمنى لكما ليلة سعيدة».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

❖

لا أستطيع أن أتذكّر اليوم كل ما قيل خلال أكثر من مائة أمسية من أمسيات الشتاء. ولكن الموضوع الرئيسي لم يكن يتغيّر إطلاقاً. إنه اللحن الطويل لاكتشافه فرنسا: الحب الذي كان يكنه لها عن بعد، قبل أن يراها، والحب ا لمتزايد كل يوم الذي يحس به منذ أن سعد بالعيش فيها. والحق أقول، لقد كان يثير إعجابي. نعم: ليت اليأس لم يدركه. وليت نفسه لم تنازعه إطلاقاً إلى أن يهز ذلك الصمت البغيض ببعض الكلمات العنيفة... على العكس، عندما كان يحدث أحياناً أن يترك هذا الصمت يغزو الحجرة ويفعمها حتى أغوار زواياها، كان يبدو أنه أكثرنا نحن الثلاثة شعوراً بالراحة. عندئذٍ كان ينظر إلى ابنة أخي بذلك التعبير من الاستحسان، الباسم والرزين في آنٍ واحد، الذي لازمه منذ اليوم الأول. وكنتُ أنا أشعر بروح ابنة أخي تثور داخل ذلك السجن الذي شيّدته حول نفسها، وأستدل على ذلك بعلامات كثيرة أبسط تفاصيلها رعشة خفيفة من الأصابع. وعندما كان فرنر فون إبرناك يبدد هذا الصمت أخيراً، برقة ودون أي صدمة، عن طريق مصفاة صوته الخافت، كان يبدو وكأنه يسمح لي أن أتنفس بحرية.

Twitter: @ketab_n

كان يتكلّم عن نفسه، غالباً:

ـ بيتي في الغابة، فيه ولدت، وكنت أذهب إلى مدرسة القرية في الجهة المقابلة؛ ولم أغادرها أبداً إلى أن ذهبت إلى ميونيخ لكي أؤدي الامتحانات، ثم إلى سالزبورج لكي أتعلّم الموسيقى. ومنذ ذلك الحين وقد استقر بي المقام هناك. لم أكن أحب المدن الكبيرة. عرفت لندن، وفيينا، وروما، ووارسو، والمدن الألمانية طبعاً. أنا لا أحب العيش في المدن الكبيرة. فقط كنت أحب براغ جداً ـ، فليس لمدينة أخرى ما لها من روح. وكنت أحب نورمبرج على الخصوص. إنها المدينة التي تنعش القلب، بالنسبة للألماني، لأنه يلقى فيها الأرواح الأثيرة لديه، كل حجر فيها يحمل ذكرى أولئك الذين صنعوا مجد ألمانيا الغابرة. وباعتقادي أن الفرنسيين لا بد وأنهم يحسون بنفس الشيء أمام كاتدرائية شارتر. لا بد وأنهم يشعرون أيضاً بوجود الأسلاف إزاءهم، برشاقة روحهم، وعظمة إيمانهم، وبرقتهم. ساقتني المقادير إلى شارتر. أوه! حقاً، عندما تتجلى للنظر، من فوق القمح الناضج، شديدة الزرقة على البعد وشفافة، وأثيرية، إنها لهزة عظيمة! كنت أتخيل عواطف أولئك الذين كانوا يفدون إليها في الماضي، على الأقدام، وفوق صهوات الجياد، أو بالعربات. كنت أشارك في هذه العواطف وأحب أولئك الناس، وكم تمنيت لو أنني أصبحت أخاً لهم!». وأصبح وجهه معتماً:

ـ «إنه لقاس دون ريب أن يُسمع هذا الكلام من رجل جاء إلى شارتر في عربة كبيرة مصفحة... إلا أنه صحيح مع ذلك. فعديد من الأشياء تتحرّك في روح الألماني، حتى في روح أحسن الألمان! عديد من الأشياء التي يتمنى كثيراً لو أن أحداً شفاه منها...» ابتسم من جديد، ابتسامة خفيفة جداً،

Twitter: @ketab_n

أضاءت وجهه كله بالتدريج. ثم قال:

ـ في القصر المجاور لمنزلنا توجد فتاة. وهي شديدة الجمال شديدة الرقة. كان أبي سيغتبط كثيراً لو أنني تزوجتها. وعندما مات كنا قد أصبحنا مخطوبين تقريباً، وكان يُسمح لنا بالقيام بنزهات طويلة، نكون فيها نحن الإثنين وحدنا.

انتظر، لكي يستمر في حديثه، أن تنتهي ابنة أخي من إدخال الخيط في الإبرة من جديد، وكانت قد قطعته. كانت تفعل ذلك بمهارة فائقة، إلا أن الثقب كان ضيقاً للغاية مما يجعل العملية صعبة. وأخيراً فرغت منها. فاستأنف الحديث قائلاً:

ـ ذات يوم كنا في الغابة. وكانت الأرانب والسناجب. وكان هناك كل أنواع الزهور: أزهار السوسن البري وأزهار النسرين والنرجس... وكانت الفتاة تصيح من النشوة. قالت: «إنني سعيدة يا فرنر. وأنا أحب، أوه! أحب هدايا الله تلك!» وكنت سعيداً، أنا أيضاً. وتمددنا على النجيل وسط نباتات السرخس. لم نكن نتكلّم. كنا ننظر فوقنا إلى ذؤابات أشجار الصنوبر وهي تتمايل، وإلى العصافير تطير من غصن إلى غصن. أطلقت الفتاة صيحة: «أوه! لقد لدغني في ذقني! الحيوان الصغير القذر، البعوضة الشريرة الصغيرة!» ثم رأيتها تأتي بيدها حركة مفاجئة. «لقد اقتنصت منها واحدة يا فرنر! أوه! ا نظر، سأعاقبها: سأنزع لها أرجلها ـ واحدة ـ تلو ـ الأخرى...» وكانت تفعل ذلك بينما كانت تتكلم.

واستمر قائلاً: «لحسن الحظ كان الراغبون في الزواج منها كثيرين، فلم

Twitter: @ketab_n

يساورني الندم. ولكن هذه الحادثة جعلتني أيضاً أصاب بالفزع الدائم من الفتيات الألمانيات».

كان ينظر إلى باطن يديه وعلى وجهه سيماء التفكير، وقال:

ـ ورجال السياسة عندنا هم أيضاً على هذا النحو، ولذلك لم أرغب في الاختلاط بهم، رغم زملائي الذين كانوا يكتبون لي قائلين: «تعال فانضم إلينا..». كلا: لقد فضلتُ دائماً البقاء في منزلي. لم يكن هذا حسناً بالنسبة للتقدم في الموسيقى، ولكن لا يهم. فالتقدم شيء بسيط بالنسبة إلى ضمير مرتاح. وأنا في الواقع أعلم تمام العلم أن لديّ أصدقائي ولدى الفوهرر أنبل الأفكار وأعظمها. إلا أنني أعلم أيضاً أنهم كانوا سينزعون أرجل البعوض الواحدة بعد الأخرى. وهذا ما يحدث للألمان دائماً عندما يكونون شديدي الوحدة: إن ذلك ليبرز على الدوام. ومن تُراهم أكثر «وحدة» من رجال الحزب الواحد، عندما يكونون هم السادة؟

«وهم الآن ليسوا وحدهم لحسن الحظ: إنه في فرنسا. وستشفيهم فرنسا. سأقول لكم هذه الحقيقة: إنهم يعرفون ذلك. يعرفون أنّ فرنسا ستعلمهم كيف يكونون رجالاً أطهاراً وعظماء حقاً.»

اتجه نحو الباب. وقال بصوت مكتوم، كما لو كان يخاطب نفسه:

ـ ولكن من أجل ذلك يجب أن يتوافر الحب ـ

أمسك الباب مفتوحاً للحظة، التفت بوجهه ناحية كتفه ونظر إلى عنق ابنة أخي وهي منحنية على شغلها، حيث كان شعرها يرتفع على شكل

Twitter: @ketab_n

دوائر حلزونية معتمة من خشب الأكاجو. أضاف بنبرة تصميم هادئ:

ـ الحب المتبادل.

ثم حوّل رأسه، وانغلق الباب عليه بينما كان ينطق بصوت سريع كلماته اليومية.

«أتمنى لكما ليلة سعيدة».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

❖

كانت أيام الربيع الطويلة قد حلّت. وفي تلك الأيام كان الضابط ينزل مع أفول آخر أشعة الشمس. كان يرتدي على الدوام سرواله المصنوع من قماش الفانلة الرمادي، ولكن على الصدر كانت سترة خفيفة من الصوف القاتم اللون تغطي قميصاً من الكِتّان ذا ياقة مفتوحة. نزل ذات مساء وفي يده كتاب مغلق على سبابته. وكانت تضيء وجهه تلك الابتسامة النصفية التي تشير مقدماً إلى فرح الآخرين المفقود. قال.

ـ أحضرت هذا من أجلكما. إنها صفحة من ماكبث. يا للآلهة! أي عظمة تلك!

وفتح الكتاب:

ـ إنها النهاية. قوة ماكبث تتسرّب من بين أصابعه مع حب أولئك الذين يكتشفون أخيراً مطامحه السوداء. الأمراء النبلاء الذين يدافعون عن شرف اسكتلندا ينتظرون انهياره القريب، واحد منهم يصف الأعراض الدرامية لهذا الانهيار..

قرأ ببطء، في تؤدة مؤثرة:

Twitter: @ketab_n

«إنه يشعر الآن أن ما ارتكبه من جرائم في الخفاء يخزه في يديه، ففي كل دقيقة تنفجر في وجهه ثورة جديدة تغيّره وتؤنبه على عهود خانها، ودماء سفكها. أما الذين يأمرهم ويطيعون فإنما تنبع طاعتهم من الخوف لا من الحب. إنه يشعر تماماً أن لقبه قد أصبح كبيراً، أكبر منه بكثير، كما لو أنه لباس مارد جبار يرتديه قميء.»

رفع رأسه من جديد وضحك. وتساءلت في ذهول عما إذا كان يفكر في نفس الطاغية الذي كنت أفكر فيه. ولكنه قال:

ـ أليس هذا هو الذي ينغّص على أميرالكم لياليه؟ إنني أرثي لذلك الرجل حقاً، رغم أنه يوحي لي من الازدراء مثلما يوحي لكم. «أما الذين يأمرهم ويطيعون فإنما تنبع طاعتهم من الخوف لا من الحب» إن الرئيس الذي لا يحظى بحب مرؤوسيه هو تمثال بائس. فقط... فقط.. هل يستطيع الإنسان أن يتوقع شيئاً آخر؟ من إذن، غير هذا الرجل الطموح الكئيب، كان يقبل هذا الدور؟ وبالتالي فقد كان حتمياً. كان حتمياً أن يبيع أحدهم وطنه لأنه اليوم، ـ اليوم ولأمد طويل ـ لا يمكن لفرنسا أن تسقط بإرادتها بين ذراعينا المفتوحتين دون أن تحس بأنها قد أضاعت كبرياءها الخاص. أن أبشع ألوان الخسة تختلط بأجمل ألوان التحالف، إلا أن الخسة لا تصبح بذلك أقل حقارة، ولا يصبح التحالف بذلك أقل جمالاً.

أغلق الكتاب بصوت مسموع وأدخله في جيب سترته ودق على ذلك الجيب براحة يده مرتين بحركة آلية! ثم أشرق وجهه الطويل بتعبير سعيد وقال:

Twitter: @ketab_n

ـ عليَّ أن أخبر مضيفيّ أنني سأتغيّب لمدة أسبوعين! إن البهجة تغمرني بذهابي إلى باريس. لقد أتى الآن دوري في الإجازة وسأقضيها في باريس! إنه ليوم عظيم بالنسبة لي، بل إنه لأعظم يوم حتى يحين يوم آخر أنتظره بكل جوارحي سيكون أكثر عظمة أيضاً! وأنني لأعرف كيف أنتظره سنوات وسنوات إذا لزم الأمر! فقلبي مليء بالصبر الطويل.

«أعتقد أنني سأرى أصدقائي في باريس، حيث يحضر الكثيرون منهم المفاوضات التي نجريها مع رجال السياسة عندكم، لكي نهيء للاتحاد الرائع بين شعبينا! وهكذا أصبح إلى حد ما شاهد هذا الزواج.. أريد أن أقول لكما أنني مبتهج من أجل فرنسا، فبهذه الطريقة ستلتئم جروحها بسرعة، إلا أنني أيضاً أشد ابتهاجاً من أجل ألمانيا ومن أجل نفسي! فلن يستفيد أحد من حسن صنيعه مثلما ستفعل ألمانيا عندما تعيد إلى فرنسا عظمتها وحريتها!»

«أتمنى لكما ليلة سعيدة»!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عُطيل

«فلنطفئ هذا النور، لكي
نطفئ بعد ذلك نور الحياة»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

❖

لم نره عندما عاد.

كنا نعرف أنه هنا، فثمة دلائل كثيرة تفضح وجود الضيف في المنزل حتى لو ظل بعيداً عن العيون. ولكننا خلال أيام عديدة ـ تجاوزت الأسبوع ـ لم يحدث أن رأيناه.

هل تراني أبوح؟ إن هذا الغياب قد حرمني هدوء النفس. كنتُ أفكر فيه، ولستُ أدري إلى أيّ حدّ لم يكن يساورني الأسف أو القلق. لم نتحدّث عنه، لا ابنة أخي ولا أنا. ولكننا عندما كنا نسمع أحياناً، في المساء، الصوت المكتوم لخطواته غير المتسقة يرنّ في الطابق العلوي، كنتُ أرى جيداً، خلال الاجتهاد المثابر الذي كان تضعه فجأة في شغلها، وخلال بعض الخطوط الخفيفة التي كانت تطبع على وجهها تعبيراً عنيداً ومنتبهاً في آن واحد، أنها هي أيضاً لم تكن خالية الذهن من أفكار مشابهة لتلك التي كانت تشغلني.

وذات يوم كان عليّ أن أذهب إلى القيادة العامة لأمر ما، وبينما كنتُ أملأُ الاستمارة التي كانت قد مُدّت إليّ، خرج فرنر فون أبرناك من مكتبه. لم يرني

Twitter: @ketab_n

للوهلة الأولى. كان يتحدث إلى الجاويش الجالس إلى مائدة صغيرة أمام مرآة عالية معلقة على الجدار. كنتُ أستمع إلى صوته المكتوم ذي التموّجات الرنانة. ولست أدري لماذا ظللت باقياً هناك، رغم أنه لم يعد لديّ ما أفعله، وقد أخذني انفعال فضولي، منتظراً أن تقع نهاية لا أعلمها. كنتُ أرى وجهه في المرآة، وقد بدا لي شاحباً ومخطوفاً. ارتفعت عيناه، وسقطتا على عينيّ، فنظرنا إلى بعضنا لمدة ثانيتين، وفجأة استدار على عقبيه وواجهني. انفرجت شفتاه وفي بطء رفع إحدى يديه رفعاً خفيفاً، وفي نفس اللحظة تقريباً تركها تسقط من جديد. وهزّ رأسه ـ دون وعي ـ في تردّد مؤثر، كما لو أنه يقول لنفسه: كلاّ، لنفسه فقط، دون أن تتركني عيناه مع ذلك. ثم اقتضب انحناءة بنصفه الأعلى، تاركاً نظرته تنزلق إلى الأرض، وعاد إلى مكتبه، وهو يعرج، حيث أغلقه على نفسه.

لم أقل لابنة أخي شيئاً عن ذلك. ولكن النساء لهن قدرة القطط على الاستشعار. فطوال السهرة لم تنقطع عن رفع عينيها عن شغلها، كلّ دقيقة، لتركزهما عليَّ، محاولة أن تقرأ شيئاً ما في وجه كنت أجهدُ في إبقائه جامداً، منهمكاً في تدخين غليوني. وأخيراً تركت يديها تسقطان، كما لو كانت متعبة، وطوت القماش، وطلبت مني أن أسمح لها بالذهاب للنوم مبكرة. كانت تمر باصبعين على جبهتها كما لو أنها تطردُ صداعاً ألمّ بها. قبلتني، وخيّل إليّ أنني أقرأ في عينيها الرماديتين الجميلتين عتاباً وحزناً ثقيلاً جداً. بعد ذهابها أحسست بأن حنقاً سخيفاً يثيرني، الحنق الذي يولده إحساسك بأنك سخيف وبأن لك ابنة أخ سخيفة. ماذا كانت كلّ تلك الحماقة؟ ولكنني لم أكن أستطيع أن أجيب نفسي. لو أن هذه كانت حماقة، فقد كان يبدو أنها

Twitter: @ketab_n

متأصلة تماماً.

وبعد ثلاثة أيام، ما كدنا نُفرغ اقداحنا حتى سمعنا، وفي هذه المرّة لم يخالجنا الشك، الضربات غير المنتظمة للخطى المألوفة تولد وتقترب. تذكرتُ فجأة أول مساء في الشتاء سمعنا في تلك الخطوات، قبل ستة أشهر. فكرت «إن السماء تمطر اليوم أيضاً». كانت تمطر بقسوة منذ الصباح. منظر منتظم وعنيد، كان يغرق كل شيء من الخارج، ويملأ حتى داخل المنزل بجو من البرودة والرطوبة. كانت ابنة أخي قد غطت كتفيها بقطعة مربعة من الحرير المنقوش بدت عليها عشر أياد قلقة من رسم جان كوكتو تتبادل الإشارة بعضها مع بعض بطريقة رخوة. وكنت أنا أ دفئ أصابعي على فتحة الغليون، وكنا حينذاك في شهر يوليه!

اجتازت الخطوات الممر وبدأت في جعل درجات السلم تهتز. كان الرجل يهبط في بطء، بطء دائم التزايد ولكنه ليس بطء الشخص المتردد: كان كمن تخضع إرادته لمحنة قاسية. وكانت ابنة أخي قد رفعت رأسها وراحت تنظر إليّ. رمقتني خلال كل هذا الوقت بنظرة شفافة ولا إنسانية كنظرة الدوق الكبير. وعندما أنّت آخر درجة من درجات السلّم وتبع ذلك صمتٌ طويل، طارت نظرة ابنة أخي ورأيت جفنيها يتثاقلان وينحني رأسها وينزوي الجسد كله بتعب خلف مسند الفوتيل.

لا أعتقد أن هذا الصمت قد تجاوز عدة ثوان، ولكنها كانت ثواني طويلة. خيّل إليّ أنني أرى الرجل، خلف الباب، رافعاً سبابة متهيئة للدق، ومؤجلاً، مؤجلاً وقوع اللحظة التي ستجعله فيها حركة الدق وحدها ينخرط في المستقبل.. وأخيراً دق. ولم يكن ذلك مصحوباً بخفة التردد

Twitter: @ketab_n

ولا بمفاجأة الخوف المقهور، بل كانت ثلاث دقات مليئة وبطيئة، دقات واثقة وهادئة تولدت عن قرار لا رجعة فيه. كنت أنتظر أن أرى الباب، كما كان يحدث في الماضي، ينفتح في الحال. ولكنه ظل مغلقاً، وعندئذ اجتاحني هياج نفسي لا يُقهر اختلط فيه التساؤل بعدم يقين الرغبات المتعارضة. وكان يبدو لي أن كل واحدة من الثواني، التي كانت تمرّ بسرعة الشلال المتفاقمة، لم تكن إلا لتزيد هذا الهياج اضطراباً وتجعله بلا مخرج. أكان يجب أن نرد؟ ولم هذا التغيير؟ لماذا كان ينتظر أن نحطم هذا المساء صمتاً طالما أظهر هو عن طريق موقفه الداخلي كم هو موافق على رسوخه الآمن؟ ترى ماذا كانت هذا المساء ـ هذا المساء بالذات ـ وصايا الكبرياء؟

نظرتُ إلى إبنة أخي لأصطاد من عينيها تشجيعاً أو إشارة. ولكني لم أرَ سوى منظرها الجانبي. كانت تنظر إلى مقبض الباب، كانت تنظر إليه بذلك الثبات اللاإنساني للدوق الكبير الذي صدمني من قبل، كانت شديدة الشحوب ورأيت، منزلقة على أسنان بدا منها خط أبيض، شفتها العليا ترتفع في انقباض أليم. أما أنا، فأمام هذه الفجيعة الصميمية التي انكشف عنها القناع فجأة، والتي كانت تتجاوز بكثير العذاب الخافت لترددات، فقدتُ آخر ما كان لديّ من قوى. وفي هذه اللحظة سمعت دقتين أخريين، اثنتين فقط، ضعيفتين وسريعتين، ـ وقالت إبنة أخي «سوف يذهب..» بصوت خافت وخائر تماماً حتى أنني لم أنتظر أكثر من ذلك وقلت بصوت واضح: «أدخل يا سيدي.».

لماذا أضفتُ كلمة: سيدي؟ ألكي أبين أنني كنت أدعو الإنسان لا الضابط العدو؟ أم، على العكس، لكي أظهر أنني لم أكن أجهل من الذي

Twitter: @ketab_n

طرق الباب وأنني إليه هو بالذات كنت أتوجه بالحديث؟. لا أعلم. ولا أهمية لذلك. فقد انتهى الأمر بأن قلت: ادخل يا سيدي، وبأن دخل.

كنت أتصور أنني سأراه يظهر في زي مدني ولكنه كان مرتدياً الزي الرسمي. وبوسعي القول وأنا مطمئن أنه كان يوحي أكثر من أي وقت مضى بارتدائه الزي الرسمي، هذا إذا فهمنا من ذلك أنه قد بدا لي بوضوح أن هذه البزة قد ارتداها عامداً متعمداً أن يفرض علينا رؤيتها. كان قد أراح الباب على الحائط ووقف معتدلاً في فتحته، شديد الاعتدال وشديد التصلّب لدرجة أنني قد خالجني الشك في أن الذي أمامي هو نفس الرجل الذي أعرفه، ولدرجة أنني، للمرة الأولى، انتبهت إلى الشبه الصارخ بينه وبين الممثل لوي جوفيه، وبقي على هذا الوضع عدة لحظات معتدلاً ومتصلباً وصامتاً، أقدامه متباعدة تباعداً خفيفاً، وذراعاه قد نزلا بدون تعبير على طول جسده، ووجهه شديد البرود، متبلد تمام التبلّد، حتى أنه كان يبدو أن أبسط العواطف لا يمكن أن تسكنه.

أما أنا، وكنت جالساً في مقعدي الغائر، وكان وجهي على ارتفاع يده اليسرى، فقد كنت أرى هذه اليد وأخذت بها عيناي فاستقرّتا عليها كما لو كانتا مغلولتين، بسبب المشهد المؤثر الذي كانت تمنحني إيّاه والذي كان يخفي بشكل عاطفي كلّ موقف الرجل...

وقد علمت في ذلك اليوم أن يداً ما تستطيع ـ لمن يعرف كيف يراقبها ـ أن تعكس الانفعالات مثلما يستطيع الوجه، مثلما يستطيع الوجه بل وأحسن مما يستطيع لأنها أكثر منه استعصاء على سيطرة الإرادة. وقد كانت أصابع هذه اليد تنبسط وتنقبض، تعتصر نفسها وتتعلق بعضها ببعض وتستسلم

Twitter: @ketab_n

لأبسط اللفتات بينما بقي الوجه والجسم كله في جمود وهدوء.

ثم بدا أن العينين قد عاودتهما الحيوية، استقرتا لحظة عليّ فخيّل إليّ أن صقراً يرمقني، ـ عينان لامعتان بين جفون متباعدة متصلبة، هي الجفون المتهرئة والمتصلبة لشخص استحوذ عليه الأرق. وبعد ذلك استقرتا على ابنة أخي ولم تتركاها أبداً.

وأخيراً كفّت اليد عن الحركة وكذلك كل الأصابع المنقبضة والمتشنجة في راحتها، وانفتح الفم (وأصدرت الشفتان وهما تنفرجان صوت.. «بب» مثل عنق زجاجة فارغة نزع عنها سدادها)، وقال الضابط، ـ وكان صوته مكتوماً أكثر من أيّ وقت مضى:

ـ عليّ أن أدلي لكما بكلام خطير.

كانت ابنة أخي تواجهه ولكنها كانت خافضة رأسها. كانت تلف حول أصابعها خيوط الصوف من كرة الخيط بينما كانت الكرة تنفك وهي تتدحرج على السجادة. وقد كان هذا العمل السخيف هو الشيء الوحيد دون ريب الذي استطاع أن يتعلق بانتباهها الشارد، ـ وأن يجنبها الخجل.

وأستأنف الضابط الحديث، ـ وكان المجهول الذي يبذله من الوضوح بحيث كان يبدو أنه سيدفع حياته ثمناً لما سيدلي به.

ـ كل ما قلته خلال هذه الشهور الستة، وكل ما سمعته جدران هذه الغرفة...» وتنفس، باذلاً جهد من أصيب بالربو، وأبقى صدره منفتحاً للحظة. «ينبغي...». وتنفس: «ينبغي نسيانه».

وتركت الفتاة يديها تسقطان ببطء في حجر تنورتها حيث بقيتا متدليتين

Twitter: @ketab_n

هامدتين مثل زوارق اصطدمت بالرمل، ورفعت رأسها في بطء، وحينئذ، لأول مرة ـ نعم لأو ل مرة ـ منحت الضابط نظرة عينيها الشاحبتين.

قال (في بطء حتى أنني سمعت بصعوبة): !! On nelch,ein licht[1] دون أن تصدر عنه حتى ولو همسة؛ وكما لو كانت عيناه في الواقع لم تقدرا على تحمّل هذا الضوء، فقط أخفاهما وراء قبضته. ومرّت ثانيتان، ثم ترك يده تسقط من جديد ولكنه كان قد أرخى جفنيه، ومنذ هذه اللحظة كان هو الذي بدأ يخفض بصره إلى الأرض...

وأصدرت شفتاه صوت «بب..» ونطق، ـ كان صوته مكتوماً، مكتوماً، مكتوماً:

ـ لقد رأيتُ القوم المنتصرين.

ثم، بعد عدة ثوان، وبصوت أشد انخفاضاً:

ـ وتحدثت إليهم.

وأخيراً، في همس، وببطء أليم.

ـ وسخروا مني.

ورفع عينيه إليّ، وبصورة رزينة هز رأسه ثلاث مرّات دون وعي، وانغلقت عيناه ثم :

ـ لقد قالوا: «ألم تفهم أننا نهزأ بهم؟» لقد قالوا ذلك بالضبط [2]: Wir prellen sie. وقالوا : «أفلا تفترض أننا ببلاهة سنترك فرنسا تنهض على

(1) - (2) بالألمانية في النص الفرنسي.

Twitter: @ketab_n

حدودنا؟ كلا؟» وأغرقوا في الضحك. وكانوا يضربونني بمرح على ظهري وهم ينظرون إلى وجهي «نحن لسنا بموسيقيين!»

وكان صوته يدل، وهو ينطق هذه الكلمات الأخيرة، على احتقار دفين لست أدري إذا ما كان يعكس به عواطفه الخاصة تجاه الآخرين، أم أن تلك كانت هي نبرة كلماتهم إليه.

ـ وعندئذ تحدّثت طويلاً، بكثير من الحمية. كانوا يقاطعونني بأصواتهم «تست! تست!». وقالوا:

«إن السياسة ليست حلم شاعر!. لماذا تُرنا أشعلنا الحرب في اعتقادك؟ أمن أجل ماريشالهم العجوز؟» وضحكوا أيضاً: «نحن لسنا مجانين ولا معتوهين: إن الفرصة أمامنا للقضاء على فرنسا، وسنقضي عليها. لا على قوتها فقط، ولكن على روحها أيضاً. وعلى روحها بنوع خاص. ففي روحها يكمن الخطر كل الخطر. وتلك هي مهمتنا في هذه اللحظة فلا تخدع نفسك عنها يا عزيزي! سنغرر بها عن طريق الابتسامات والملاطفات. سوف نجعل منها كلبة زاحفة.»

وسكت. وكان يبدو لاهثاً. كان يضغط فكيه حتى أنني كنت أرى أعلى خديه يبرزان، وشرياناً كثيفاً متعرجاً مثل الدودة ينتفض ما بين أذنه وعينه. وفجأة تحرّك جلدُ وجهه كله في نوع من الارتعاد الباطني، ـ كما تفعل هبة من النسيم على سطح بحيرة، وكما يحدث لطبقة القشدة المتجمدة على سطح اللبن عندما يبدأ في الغليان، لدى صعود أولى الفقاعات. وتعلّقت عيناه بعينيّ ابنة أخي الشاحبتين المتسعتين، وقال بصوت خفيض، متجانس،

Twitter: @ketab_n

حاد ومضغوط، في بطء منهك.

ـ «ليس هناك أمل». قالها بصوت مكتوم أكثر من ذي قبل، وأشدّ انخفاضاً، وأكثر بطأً، كما لو كان يريد من وراء ذلك أن يعذّب نفسه بهذا الاستنتاج الذي لا رحمة فيه. «لا أمل. لا أمل».

وفجأة، على نحو غير متوقع، أصبح صوته عالياً قوياً، ولكم أثار دهشتي أن أراه أيضاً واضحاً ورناناً، مثل صوت البوق، ـ أو مثل صرخة: «لا أمل!»

وبعد ذلك حلّ الصمت.

خيّل إليّ أنني سمعته يضحك. وقد كانت جبهته التي يبدو عليها العذاب والإجهاد تشبه حبلاً من الحبال الحديدية لأحد المراكب. وارتعشت شفتاه، شفتا مريض هما في نفس الوقت محمومتان وشاحبتان.

ـ لقد وجهوا إليّ اللوم، بشيء من الغضب: «هل ترى إذن! هل ترى إلى أي حد بلغ حبك لها. هنا يكمن أبلغ الخطر! ولكننا سوف نشفي أوروبا من هذا الطاعون! سوف نطهرها من ذلك السم!». لقد شرحوا لي كل شيء. آه! لم يدعوا لي شيئاً أجهله. هم ينافقون كتّابكم، إلاّ أنهم في نفس الوقت، في بلجيكا أو هولندا، في جميع البلاد التي تحتلها قواتنا، قد أقاموا دونهم سداً منيعاً منذ زمن. ما من كتاب فرنسي يمكن أن يمر، ـ فيما عدا المطبوعات الفنية ومختصرات انعكاس الضوء أو قوانين التحول الكيميائي للمعادن.. لكن ما من مؤلف من مؤلفات الثقافة العامة. لا شيء!

وحامت نظرته فوق رأسي، طائرة أو مصطدمة بزوايا الحجرة كما يحدث لعصفور ضال من عصافير الليل. وأخيراً بدا أنها وجدت مأوى في أكثر

Twitter: @ketab_n

الرفوف عتمة ـ تلك التي كان يصطف عليها راسين ورونسار وروسو. وظلت عيناه عالقتين هناك، واستأنف صوته، بعنف مرتعد:

ـ لا شيء، لا شيء، لا أحد!». وكما لو أننا لم نكن قد فهمنا بعد، أو أننا لم ندرك فداحة الخطر: «ليس الأمر مقتصراً على كتّابكم المحدثين فقط! ليس مقتصراً على بيجي أو بروست أو برجسون... ولكنه قد شمل جميع الآخرين، كل هؤلاء، كلهم، كلهم...»

ومسحت نظرته مرة أخرى المجلدات التي كانت تلتمع برقة في الظلام، كما لو كانت تداعبها مداعبة يائسة، وصاح:

ـ إنهم سوف يخمدون الشعلة إلى الأبد. وأوروبا لن يضيئها بعد اليوم ذلك النور.

وجعل صوته الخطير الأجوف الصرخة الأليمة غير المتوقعة تنتشر في أغوار صدري، حيث زحف المقطع الأخير منها مثل أنين متوجع:

ـ Never More[1]!

وحلّ الصمت مرة أخرى. أجل مرة أخرى، ولكن، في هذه المرة، كم كان صمتاً متوتراً ومعتماً! والواقع أنه في ظل فترات الصمت الماضية ـ وكان الأمر يشبه صراعاً ينشب بين الحيوانات في البحر، تحت سطح المياه الساكن ـ كنت أحس اضطراب الحياة الباطنية للعواطف الدفينة، وللرغبات والأفكار التي تناقض بعضها بعضاً ولا تكف عن الصراع. ولكن في ظل هذا الصمت، آه، لا شيء سوى قهر مفزع...

---

(1) بالإنجليزية في النص الفرنسي.

Twitter: @ketab_n

وأخيراً حطّم الصوت ذلك الصمت. كان صوتاً رقيقاً وتعيساً.

ـ كان لي صديق. وكان هذا الصديق هو أخي. درسنا سوياً وكنا نقطن نفس الغرفة في شتوتجارت وقضينا ثلاثة أشهر معاً في نورمبرج. ولم يكن أحدنا يفعل شيئاً بدون الآخر: كنت أعزف أمامه موسيقاي؛ وكان هو يقرأ لي قصائده. كان حساساً ورومانسياً. إلا أنه تركني. ذهب يقرأ قصائده في ميونيخ، أمام أصحاب جدد. وهو الذي كان لا ينقطع عن الكتابة إليّ لكي ألحق بهم. وهو نفسه الذي رأيته في باريس مع أصدقائه، ورأيت ماذا صنعوا منه!

حرّك رأسه في بطء، كما لو أنه قد تحتم عليه أن يردّ برفض أليم على نوع من التوسلات.

ـ كان هو أكثرهم حنقاً. كان يمزج الغضب بالضحك. أحياناً كان ينظر إليّ باهتياج ويصيح: «إن هذا سم! ينبغي أن نخلّص الوحش من سمه.» وأحياناً أخرى كان يوجه إلى معدتي ضربات خفيفة من طرف سبابته: «إنهم يعانون الآن من الخوف الأكبر، آه. آه. إنهم يخافون على جيوبهم وبطونهم، ـ يخافون على صناعتهم وتجارتهم! هم لا يفكرون في غير ذلك؛ أما ما ندر من الآخرين، فإننا نتملقهم ونخدّرهم، آه. آه... سيكون الأمر سهلاً!»

وكان يضحك فيصبح وجهه وردي اللون تماماً: «سوف نجعلهم يبيعوننا أرواحهم في مقابل طبق من العدس.» وتنفس فرنر:

ـ وقلت: «هل قدّرتم ما تفعلونه؟ هل قدرتموه؟» فقال هو: «وهل تنتظر أن يخيفنا ذلك؟ إن يقظتنا مجبولة من طينة أخرى!» فقلت: «وإذن سوف

Twitter: @ketab_n

تغلقون هذه المقبرة؟ ـ إلى الأبد؟» فقال: «إنها مسألة حياة أو موت. يكفي أن تتوافر لديك القوة لكي تفتح بلداً، لا لكي تسيطر عليه. نحن نعرف جيداً أن جيشاً ما لا قيمة له إذا كان الهدف هو السيطرة» فصحت: «ولكن ذلك سيكون على حساب الروح. لا داعي أن يكون هذا هو الثمن؟» فقال: «إن الروح لا تموت أبداً. إنها تكون قد رأت أرواحاً أخرى، وتولد من جديد من الرماد الذي خلّفته، ينبغي أن نشيد لألف سنة مقبلة: ولكننا يجب أن نبدأ أولاً بالهدم». وكنت أنظر إليه، كنت أنظر في أعماق عينيه الصافيتين. وقد كان مخلصاً، نعم. وذلك هو أفظع ما في الأمر».

وانفتحت عيناه على آخرها، ـ كما لو كانتا تحدقان في مشهد جريمة بشعة:

ـ «إنهم سوف يفعلون ما يقولون.» صاح بذلك كما لو أنه كان من المحتم علينا ألاّ نصدقه. «سوف يفعلون ذلك بنظام وصبر. إنني أعرف هؤلاء الشياطين الهوج.»

وهزّ رأسه، مثل كلب تؤلمه إحدى أذنية. ومرّت همسة بين أسنانه التي كان يصرّ عليها، هي كلمة «أوه» المتوجعة العنيفة حين يطلقها عاشق مخدوع.

ولم يكن قد تحرّك. كان ساكناً على الدوام، متصلباً ومعتدلاً في فتحة الباب، ذراعاه مسترخيتان على جانبيه كما لو أنهما كانتا تتدلى منهما يدان من رصاص؛ وكان شاحباً، ـ ليس في مثل شحوب الشمع، ولكن في مثل شحوب طلاء بعض الجدران المتهرئة، فقد كان لونه رمادياً تتخلله بقع أكثر

Twitter: @ketab_n

بياضاً من الملح.

رأيته يحني نصفه الأعلى ببطء... ورفع إحدى يديه وأشار بها ـ وراحتها إلى أسفل وأصابعها منقبضة قليلاً ـ نحو إبنة أخي، ونحوي. ثم قبض يده كلها وحرّكها قليلاً بينما كان تعبير وجهه ينطق بنوع من القوة المتوحشة. وانفرجت شفتاه، واعتقدت أنه كان بسبيله إلى أن يلقي علينا لست أدري ماذا من كلمات التحريض: اعتقدت، ـ نعم، اعتقدت أنه كان بسبيله إلى أن يشجعنا على التمرد. بيد أنه لم تخرج من بين شفتيه أي كلمة. وأغلق فمه، وأغلقت عيناه مرة أخرى. واعتدل في وقفته. وصعدت يداه على طول الجسد، وشرعت تؤدي على ارتفاع الوجه حركات غير مفهومة، كانت تشبه بعض أوضاع الرقصات الدينية في جاوة. ثم تحول إلى سوالفه وجبهته، ضاغطاً على جفونه بأصابعه الطويلة الدقيقة.

ـ لقد قالوا لي: «إن هذا حقنا وواجبنا» واجبنا!... طوبى لمن يعثر على طريق واجبه بمثل هذا اليقين السهل.

وعادت يداه فسقطتا من جديد.

ـ عند مفترق الطرق، يقال لك: «اسلك هذا الطريق الذي هناك»، وهز رأسه. «وعلى هذا الأساس فإن المرء لا يرى هذا الطريق يصعد نحو الأعالي الوضاءة للقمم، وإنما يراه ينحدر نحو وادٍ مشؤوم، ويغوص في ظلمات عفنة لغابة كئيبة. آه يا إلهي! أرجوك أن تدلني على واجبي!»

قال، ـ وكان صوته يقترب من الصراخ:

ـ إنه النضال، ـ إنها المعركة الكبرى بين ما هو مادي وما هو روحاني!

Twitter: @ketab_n

كان ينظر بثبات أليم إلى الملاك المحفور بأعلى النافذة، الملاك الإلهي الباسم الذي يشع منه نور سماوي.

وفجأة انبسطت أساريره وفقد الجسد تصلبه وانحنى وجهه قليلاً نحو الأرض، بيد أنه عاد فرفعه من جديد، وقال بنبرة طبيعية:

ـ لقد استعملت حقوقي وطلبت الالتحاق بإحدى كتائب الغزو. وقد استجابوا لي أخيراً وقدموا لي هذا المعروف: وغداً سيسمح لي بأن أبدأ الرحيل ـ

وأعتقد أنني رأيت شبح ابتسامة يرفرف على شفتيه عندما أضاف محدداً:

ـ إلى الجحيم.

وارتفع ذراعه نحو الشرق، نحو تلك السهول المترامية التي ستتغذى فيها الحنطة في المستقبل من الجثث.

وآلمني وجه ابنة أخي، فقد كان في مثل شحوب القمر. وكانت شفتاها، الشبيهتان بحواف زهرية من الخزف، منفرجتين، وكانت تتركّز فيهما التقطيعة التراجيدية للأقنعة الإغريقية. ورأيت، عند الحد الفاصل بين الجبهة والشَّعر ـ لا أقول تولد وإنما تنبثق، ـ نعم تنبثق، لآلئ من العرق.

ولست أدري إذا ما كان فرنر فون ابرناك قد رأى ذلك. كانت حدقتا عينيه، وحدقتا عينيّ الفتاة، مشدودة بعضها إلى بعض كما لو كان يصل بينها خيط بالغ التوتر وبالغ الصلابة بحيث لم يكن يجسر المرء على أن يمر بإصبعه ما بين عينيهما. وكان إبرناك قد أمسك بإحدى يديه مقبض الباب، وكان يمسك بالأخرى إطار الباب. ودون أن يغيّر اتجاه نظرته، جذب

Twitter: @ketab_n

الباب نحوه في بطء. قال، ـ وكان صوته يخلو بصورة غريبة من أي تعبير:

ـ أتمنى لكما ليلة سعيدة.

اعتقدت أنه كان بسبيله إلى أن يغلق الباب ويرحل. ولكن لا. فقد كان ينظر إلى ابنة أخي. كان ينظر إليها. وقال، ـ بل همس قائلاً:

ـ وداعاً.

ولم يتحرك. كان ساكناً تماماً، وفي وجهه الساكن المتوتر، كانت عيناه أكثر سكوناً وتوتراً، وكانتا متعلقتين بعينيّ ابنة أخي، ـ البالغتي الاتساع، والبالغتي الشحوب. ولقد دام ذلك، دام، ـ كم من الوقت؟ ـ دام حتى حرّكت الفتاة أخيراً، حرّكت أخيراً شفتيها. والتمعت عينا فرنر.

وسمعت:

ـ وداعاً.

وقد كان ينبغي على المرء أن يترصد هذه الكلمة لكي يسمعها، بيد أنني سمعتها أخيراً. وسمعها فون إبرناك أيضاً، وقد اعتدل في وقفته، وبدا أن وجهه وجسده كله قد أصابهما الاسترخاء، مثلما يحدث بعد أن يخرج المرء من حمام مريح.

وابتسم، حتى أن آخر صورة حفظتها له هي صورة باسمة. وأغلق الباب، وتلاشى وقع خطواته في نهاية الدار.

Twitter: @ketab_n

فيركور ● صمت البحر

لماذا هذه الطبعة الجديدة لعمل كُتب قبل 73 سنة، ونُشر بالعربية عبر ثلاث طبعات كان آخرها عام 2006؟

ببساطة: ليس لأنها واحدة من أهم وأشهر كتابات المقاومة في الأدب الحديث وحسب؛ بل لأنها أرتنا كيف للمقاومة السلبية، غير المسلحة، أن تكون ذات فعالية هائلة متمثلة في الصمت. صمت بمقدوره أن يكون مخترِقاً وقاتلاً في وقت ما، ومكان ما، وظرف ما، وحيال شخص ما.

طبعة أخرى لأننا بحاجة دائمة، ومتجددة، لتوفير هذا النصّ لجيل من القرّاء فاته الاطلاع عليه بسبب التقادم، وخلو المكتبات منه. ولأنّ كتابة كهذه تمثّل ضرورةً روحيةً ما دامت الاحتلالات لم تنته، وبخاصة الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

ولكن: أيكون الاحتلال للأرض فقط، أم هو احتلالٌ للروح أيضاً - الأمر الأشد خطورة. فأن تخضع الأرض للاحتلال مسألة يمكن معالجتها، أما أن تُحتل الأرواح؛ فإنّ معالجتها تقارب المستحيل. وهذا ما قاوماه بطلا "صمت البحر".

الناشر

أزمنة

تلفاكس 5522544 6 00962 ص.ب 950252 عمّان 11195 الأردن